النظرية اللينينية في التنظيم

تأليف: أ. ماندل
تعريب: كميل داغر





النظرية اللينينية

في التنظيم

النظرية اللينينية في التنظيم

تأليف: أ. ماندل
تعريب: كميل داغر



الطبعة الأولى

دار الالتزام
بيروت ١٩٨٤

تقديم

يتضمن هذا الكتاب دراستين لـ « ارنست ماندل » حول النظرية اللينينية في التنظيم ، أولاهما بعنوان « لينين ومشكلة الوعي الطبقي البروليتاري » كُتبت سنة ١٩٧٠ ، وثانيتهما بعنوان « حالية نظرية التنظيم اللينينية على ضوء التجربة التاريخية » كُتبت سنة ١٩٧١ .

لم يعد القارىء العربي بحاجة الى التعريف بالمؤلف وقد نشرت له مؤلفات عديدة معربة ، الى جانب الكثير من المقالات والمواقف بوصفه عضواً في الامانة الموحدة للاممية الرابعة .

هذا وقد يجد القارىء بعض الصعوبة في قراءة النصين المنشورين في هذا الكتاب لما يتميزان به ، ولا سيما اولهما ، من عمق في التحليل واستعمال لمفاهيم فلسفية ونظرية معقدة . لذا ننصح القارىء بأن يرجع قبل الغوص بهما الى كراس « نصوص حول الحزب اللينيني » للمؤلف ذاته ، الذي صدر عن دار الطليعة قبل بضعة اعوام والذي هو بمثابة مدخل الى قراءة هذا الكتاب .

لينين

ومشكلة الوعي الطبقي البروليتاري

حالية النظرية اللينينية في التنظيم

لا يمكن الخوض في نقاش جدي حول المعنى التاريخي للنظرية اللينينية في التنظيم وحاليتها إلا إذا عيّنا بدقةٍ مكانة هذه النظرية وأهميتها في تاريخ الماركسية ، او بصورة أدق: في السيرورة التاريخية لتطور الماركسية وازدهارها ، التي ينبغي إرجاعها ، ككل سيرورة تاريخية ، الى تناقضاتها الداخلية ـ في التأثير المتبادل الوثيق بين تطور النظرية وتطور النضال الطبقي البروليتاري . ان النظرية اللينينية في التنظيم تبدو ، من وجهة النظر هذه ، كوحدة جدلية لثلاثة عناصر هي : نظرية في حالية الثورة في البلدان المتخلفة في عصر الامبريالية (وقد امتدت فيما بعد لتصبح نظرية في حالية الثورة على المستوى العالمي في عصر الأزمة المعممة للرأسمالية) ؛ نظرية في التطور المتقطع والمتناقض للوعي الطبقي البروليتاري ولأكثر اطواره أهمية ، هذه الأطوار التي ينبغي تمييزها الواحد عن الآخر ، ونظرية في جوهر الماركسية وفي علاقاتها النوعية سواء بالعلم أو بالنضال الطبقي البروليتاري .

إن تفحصاً للموضوع اكثر تعمقاً سوف يوضح أن هذه

النظريات الثلاث تشكل « الاساس الاجتماعي » للمفهوم اللينيني حول التنظيم ، ذلك الأساس الذي بدونه يصبح هذا المفهوم اعتباطياً ، غير مادي وغير علمي . ليس المفهوم اللينيني للحزب هو المفهوم الوحيد الممكن ، إلا انه الوحيد الذي يلقي على عاتق حزب الطليعة التبعة التاريخية لقيادة ثورة معتبرة أمراً محتوماً على مدى متوسط أو بعيد . لا يمكن فصل المفهوم اللينيني للحزب عن تحليل نوعي للوعي الطبقي البروليتاري ، أي أن هذا المفهوم ينطلق من واقع كون الوعي الطبقي **السياسي** - خلافاً للوعي « التريديونيوني » أو « النقابي الصرف » - لا ينمو تلقائياً ولا آلياً ، منطلقاً من التطور الموضوعي للنضال الطبقي البروليتاري وحسب[1] . إنه يرتكز أخيراً إلى **استقلالية معينة**

---

(١) ليس هذا المفهوم ابتكاراً للينين . إنه ينضوي في تراث السنوات الممتدة ما بين سنة ١٨٨٠ و ١٩٠٥ وهو تراث يبدأ مع انجلز ويمر بكاوتسكي وصولاً إلى المذهب الكلاسيكي للاشتراكية - الديمقراطية . لقد جاء في برنامج هاينفلدر الذي أعدته الحركة الاشتراكية - الديمقراطية النمساوية ما بين ١٨٨٨ و ١٨٨٩ ما يلي : « ينبغي للوعي الاشتراكي أن يُدخل من الخارج إلى النضال الطبقي البروليتاري ، وهو لا يتطور من ذاته ، بصورة عضوية ، داخل هذا النضال» . لقد نشر كاوتسكي عام ١٩٠١ في « نيوزايت » مقالاً حول « الجامعيين البروليتاريين » (السنة التاسعة عشرة ، الجزء الثاني ، ١٧ نيسان ١٩٠١) طور فيه الفكرة ذاتها (ص ٨٩)، بصورة الهمت مباشرة كتاب لينين « **ما العمل ؟** ». إن مفهوم « حالية الثورة » لدى لينين ، حدده جورج لوكاش في كتابه ، « التاريخ والوعي الطبقي »، ثم فيما بعد في دراسته عن لينين . =

للتحليل العلمي أي للنظرية الماركسية التي ، وإن كانت مشروطة تاريخياً بتطور النضال الطبقي البروليتاري وببوادر الثورة البروليتارية ، لا يمكن اعتبارها نتاجاً آلياً لهذا النضال الطبقي ، بل ينبغي النظر اليها كنتيجة ممارسة نظرية (نتاج نظري) لا تتوصل للارتباط بالنضال الطبقي إلا تدريجياً . إن تاريخ الثورة الاشتراكية العالمية في القرن العشرين هو تاريخ هذه السيرورة البطيئة .

إن هذه التحليلات الثلاثة تمثل فعلياً تعميقاً للماركسية :

= من المعروف ان ماركس لم يطور مفهوما متسقاً للحزب . ولكن بينما كان احيانا يرفض بشكل كامل فكرة التنظيم الطليعي ، فقد صاغ ايضاً مفهوماً يقارب الى حد بعيد مفهوم « بث وعي اشتراكي ثوري » في الطبقة العاملة . لاحظ هذا النص المقتطع من رسالة كتبها في اول كانون الثاني عام ١٨٧٠ ، موجهة من المجلس التنفيذي للأممية الأولى الى اللجنة الاتحادية لسويسرا الرومانية : « البريطانيون يمتلكون كل المتطلبات المادية الضرورية للثورة الاجتماعية ، وما ينقصهم هو روح التصميم والعاطفة الثورية . وهذا أمر لا يستطيع علاجه الاّ المجلس التنفيذي وحده ، الذي يستطيع من خلال ذلك ، ان يعجل في تطوير حركة ثورية فعلاً في هذا البلد ، ومن ثم في كل مكان . ان النجاحات العظيمة التي حققناها حتى الآن في هذا المجال ، تشهد لها ابرز صحف الطبقة الحاكمة وأعقلها ، هذا وناهيكم بمن يسمون بالاعضاء الراديكاليين في مجلس العموم ومجلس اللوردات ، الذين كانوا يتمتعون حتى فترة قصيرة فقط ، بتأثير لا بأس به على زعماء العمال البريطانيين . انهم يتهموننا علناً بأننا سممنا ، وكدنا نخنق الروح البريطانية للطبقة العاملة ، واننا قد دفعناها الى الاشتراكية الثورية » . (ماركس ـ انجلس ، الاعمال ، برلين ، المجلد ١٦ ، صفحة ٣٨٦ ـ ٣٨٧) .

إما لمسائل لم يتطرق لها ماركس وانجلز إلا سطحياً ولم تجر بلورتها فيما بعد ، وإما لعناصر في النظرية الماركسية لم تؤخذ بالاعتبار تقريباً ، بفعل التأخر او التوقف عن نشر كتابات ماركس في الفترة الواقعة ما بين عامي ١٨٨٠ و ١٩٠٥[٢]. يتعلق الأمر إذن بتطور جديد للنظرية الماركسية ينبغي البحث عن أصله في ثغرات (وتناقضات) التفسيرات التي تناولته خلال ربع القرن الأول الذي تلاوفاته .

إن خصوصية هذا التعميق للنظرية الماركسية تكمن في كونها تخضع مختلف الزوايا التي يجري انطلاقا منها تناول هذه النظرية إلى نقطة مركزية ، ألا وهي تحديد خصوصية الثورة البروليتارية أو الاشتراكية على وجه العموم .

الخصوصيات التاريخية للثورة البروليتارية

خلافاً لجميع الثورات الماضية ، سواء الثورة البورجوازية التي قام ماركس وانجلز بالدرجة الأولى بدرس منطقها بتعمق ، او الثورات التي لم تخضع لتحليل منهجي حتى الآن (كالثورات الفلاحية وثورات البورجوازية الصغيرة المدنية ضد الاقطاع ،

---

(٢) وينطبق هذا بشكل خاص على مقولة الممارسة الثورية الماركسية الحاسمة ، التي تطورت في الايديولوجية الالمانية التي لم تكن معروفة آنذاك .

وتمـردات العبيـد ، وانتفـاضـات تجمعـات قبليـة ضـد المجتمـع العبـودي ، والثـورات الفـلاحيـة في الانمـاط القـديمـة لـلانتـاج الاسيـوي التي كـانت تنحـل دوريـاً . . . الـخ) ، فـإن الثـورة البروليتارية في القرن العشرين تتميز بأربع سمـات خاصـة تضفي عليهـا خصوصيتهـا ولكنها كـذلـك سبب صعـوبتهـا ، كـما كـان حدس ماركس بذلك[٣] .

١ ـ إن الثورة البروليتارية هي أول ثـورة ظافـرة في التاريـخ تنجـزها الـطبقة الأدنى في المجتمـع ، طبقة تمتلك في الـواقع طـاقة اقتصـادية كـامنة عـظيمة ، لكن قـوتها الاقتصـاديـة الفعليـة هي الأضعف ، وهي محـرومـة إجمـالاً من ايـة مشـاركـة في الثـروة الاجتماعية (خلافاً لامتلاك مواد الاستهـلاك التي يتم استهلاكهـا باستمرار) . هذا بخلاف البورجوازية أو طبقة النبلاء الاقطاعيـة مثـلاً ، اللتـين استـولتـا عـلى السلطة السيـاسيـة في حـين كـانت السلطة الاقتصادية في المجتمع قد انتقلت عمليـاً إليهما ، او طبقـة العبيد التي لم تنجح في الوصول بأي من ثوراتها إلى النصر .

---

(٣) بهذا المعنى يجب ان نفهم ملاحظة ماركس الشهيرة في بداية « ١٨ برومـير ، لويس بونابرت » حيث شدد على طابع النقد ذاتي للثورة البروليتارية واتجاهها للعودة الى الامور التي بدا أنها سبق وتم انجازها . في هذا الخصوص ، يتكلم ماركس ايضاً على البروليتاريا كواقعة تحت التنويم المغناطيسي لـ « الضخـامة اللامتناهية لأهدافها الخاصة بها » .

٢ ـ إن الثـورة البروليتـارية هي الثـورة الظافـرة الأولى التي تهـدف إلى قلب مخطط وواع للمجتمـع القائم ، أي التي لا تنـوي إعـادة وضـع سـابق (كـما كـانت الحـال مـع ثـورات العبيـد او الفـلاحين في المـاضي) ، بـل تحقيق سيـرورة جـديـدة كليـاً ، لم توجد من قبل أبداً ، إلا في شكل « نظرية » أو « برنامج »[٤] .

٣ ـ تنمـو الثورة البـروليتـاريـة ، تمـامـاً مثلما هي الحـال في الثـورات الأخرى في التـاريخ بـالضبط ، إنطلاقـاً من تنـاقضـات طبقية داخلية ونضالات طبقية تستثيرها في المجتمـع القائم . لكن في حـين كانت ثـورات الماضي تكتفي بـدفع صـراع الطبقـات إلى ذروتـه ـ لأن الأمر لم يكن يتعلق بـالنسبة إليهـا بـإرسـاء عـلاقـات اجتماعية جديدة كلياً ومخطط لها بصورة واعية ـ لا تستطيـع الثورة البروليتاريـة أن تتحقق إلا إذا استطاع نضـال البروليتـاريا أن يبلغ أوجه بسيرورة عملاقة متواصلة على امتـداد السنين والعقـود . إنها

---

(٤) يقول ماركس وانجلز في البيان الشيوعي إن الشيوعيين « لا يدعون الى مبادىء خاصة يريدون تكييف الحركة العمالية وفقاً لها » . إستبدل انجلز ، في الطبعة الانجليزية لعام ١٨٨٨ ، النعت « خاصة » بـ « عصبوية » . إنه يعبر بذلك عن كون الاشتراكيـة العلمية تحـاول أن تحمل إلى الحـركة العمـالية مبـادىء « خاصة » ، لكن فقط المبادىء التي هي الناتـج الموضـوعي للمجرى العـام للنضـال الطبقي البروليتاري ، أي للتاريخ المعاصر ، وليس المبادىء التي تعود لـ « لهجة كنعان » الخاصة بهذه البدعة أو تلك ، أعني لوجه عرضي صـرف للنضال الطبقي البروليتاري .

سيرورة تقوم بقلب العلاقات الانسانية رأساً على عقب ، بصورة منهجية وواعية ، وبتعميم النشاط المستقل للبروليتاريا بادىء ذي بدء ، ثم فيما بعد (حين بلوغ المجتمع اللاطبقي) لكل اعضاء المجتمع . في حين يؤدي انتصار الثورة البورجوازية إلى تحويل الطبقة البورجوازية إلى طبقة محافظة لا تعود قادرة على إنجاز تحولات ثورية إلا في الميدان التقني ـ الصناعي حيث تلعب لفترة دوراً تقدمياً موضوعياً في التاريخ ، بل تنسحب بالمقابل من دائرة التحويلات الفاعلة للحياة الاجتماعية ، وتلعب على هذا الصعيد دوراً أكثر فأكثر رجعية إذ تصطدم بالبروليتاريا الخاضعة لاستغلالها ، **ولا يشكل استيلاء البروليتاريا على السلطة نهاية نشاط الطبقة العاملة الحديثة بل فقط بداية هذا النشاط** الذي يقلب المجتمع رأساً على عقب ولا يمكن ان ينتهي إلا عبر تخطيها لذاتها من حيث هي طبقة ، بالتوازي مع تخطي كل الطبقات الأخرى[٥] .

٤ ـ على النقيض من كل الثورات الاجتماعية الماضية التي حدثت إجمالاً في الإطار القومي (أو كانت تقتصر على مناطق)

---

(٥) صاغ تروتسكي هذه الفكرة دون سوء تفاهم محتمل ، وذلك في المدخل الى أول طبعة روسية لكتابه « **الثورة الدائمة** » . كذلك طور ماوتسي تونغ هذه الفكرة . نجد على النقيض من ذلك فكرة « نمط إنتاج اشتراكي » ، فكرة تعتبر المرحلة الأولى الشيوعية شيئاً ما ثابتاً ، لا مرحلة انتقالية لتطور ثوري دائم من الرأسمالية نحو الاشتراكية .

فإن الثورة البروليتارية هي بطبيعتها أممية ؛ لن تكتمل إلا بالتشييد العالمي الشامل لمجتمع بدون طبقات . علماً أنه ينبغي أن تنتصر بالضرورة في الإطارِ القومي باديء ذي بدء ، سيبقى هذا الانتصار مع ذلك مؤقتاً ، ما دام صراع الطبقات لم يلحق هزيمة حاسمة بالرأسمال على المستوى العالمي . فالثورة البروليتارية اذن سيرورة ثورية عالمية لا تتم بصورة مستقيمة ، ولا بصورة متسقة موحدة . إن السلسلة الامبريالية تنكسر في البدء عند حلقتها الأضعف ، وتتناسب الحركة ، المتمثلة بقفزات صعود وتراجع على مستوى الثورة ، مع قانون التطور اللامتساوي والمركب (ليس فقط في الميدان الاقتصادي ، بل كذلك في ميزان القوى بين الطبقات . إن الأمرين كليهما لا يتطابقان آلياً في أي حال من الأحوال) .

تأخذ نظرية التنظيم اللينينية في الحسبان كل خصائص الثورة البروليتارية تلك ، أي انها تعيّن ميّزات هذه الثورة على ضوء خصائص وتناقضات تَشكُّل وعي الطبقة البروليتارية . إنها تعبر علانية عما لم يقم ماركس بأكثر من الشروع به ، عمّا لم يستوعبه ورثته إلا بصورة ضحلة ، عنينا حقيقة أنه لا يمكن أن يحدث قلب « آلي » للنظام الاجتماعي الرأسمالي ولا استبدال « تلقائي » او انحلال عضوي لهذا النظام الاجتماعي عبر بناء مجتمع اشتراكي . إن الثورة البروليتارية وبسبب طابعها الواعي الفريد بالتحديد تفترض مسبقاً أن تنضج العوامل « الموضوعية »

(أزمة اجتماعية عميقة يعبر عنها واقع أن نمط الانتاج الرأسمالي أدى مهمته التاريخية) ، كما العوامل « الذاتية » (نضج وعي الطبقة العاملة ونضج قيادتها) . فإذا كانت هذه العوامل الموضوعية غير متوافرة بشكل كاف ، فسوف تصطدم الثورة البروليتارية بهذا الجدار ، وستساهم هزيمتها **بالذات** في تدعيم الاقتصاد والمجتمع الرأسماليين ، لمدة من الزمن(٦) .

إن النظرية اللينينية في التنظيم تمثل تعميقاً للماركسية مطبقاً على المشكلات الاساسية للبنية الفوقية للمجتمع (الدولة ، الوعي الطبقي ، الايديولوجيا ، الحزب) . إنها تشكل ، مقرونة بأعمال روزا لوكسمبورغ وتروتسكي ، (وإلى درجة ما أعمال لوكاش وغرامشي) ، ماركسية العامل الذاتي .

الايديولوجيا البورجوازية والوعي الطبقي البروليتاري

إن موضوعة ماركس القائلة : « ليست الايديولوجيا المسيطرة في مجتمع ما إلا إيديولوجيا الطبقة المسيطرة » ، تتعارض للوهلة الأولى مع وصف الثورة البروليتارية بأنها قلب واع للمجتمع تقوم به البروليتاريا ، ونشاط ذاتي لجماهير المأجورين .

---

(٦) انظر جملة لينين المشهورة التي ترى انه ليس هناك « حالة اقتصادية لا مخرج منها » بالنسبة للبورجوازية الامبريالية .

يمكن لتفسير سطحي لهذه الموضوعة أن يقود إلى استنتاج مؤداه أنه من الطوباوية بمكان أن نتوقع من الجماهير المسيَّرة في ظل النظام الرأسمالي والمعرضة لتأثير الافكار البورجوازية والبورجوازية الصغيرة ، أن تنخرط في نضال طبقي ثوري ضد هذا المجتمع ، أو حتى في ثورة اجتماعية . ليس هربرت ماركوز (مؤقتاً) إلا الأخير في القائمة الطويلة للايديولوجيين الذين يطرحون للمناقشة الطاقات الثورية الكامنة لدى الطبقة العاملة ، منطلقين من التحديد الذي يعطيه ماركس للطبقة المسيطرة .

يمكن حل المشكلة باستبدال طريقة النظر الشكلية والجامدة بطريقة ديالكتيكية . ينبغي جعل صيغة ماركس اكثر « ديناميكية » ، على الشكل التالي : إن الايديولوجيا المسيطرة في كل مجتمع هي ايديولوجيا الطبقة المسيطرة بمعنى ان هذه تمسك بزمام الرقابة على وسائل الانتاج الايديولوجي (الكنيسة ، المدرسة ، وسائل الاعلام الجماهيرية ، الخ . .) التي في متناول المجتمع ، وتستخدمها وفقاً لمصالحها الطبقية . إن إيديولوجيا الطبقة المسيطرة تسيطر على وعي الجماهير الخاضعة ، طالما تكون السيطرة الطبقية فتية ، مستقرة وبالتالي غير مطروحة للبحث . في المراحل الاولى للصراع الطبقي ، يلجأ المستغلون (بفتح الغين) غالباً لصيغ المستغلين (بكسر الغين) ومثلهم العليا

وإيديولوجياتهم(٧) . لكن كلما طُرح النظام الاجتماعي على بساط البحث ، وأصبح الصراع الطبقي اكثر حدة والسيطرة الطبقية أشد اهتزازاً ، كلما تحررت أقسام من الطبقة المضطهدة (بفتح الهاء) من أفكار المسيطرين . إن الصراع بين إيديولوجية الطبقات المسيطرة والافكار الجديدة للطبقات الثورية يسبق الثورة الاجتماعية ، ويسرّع من جهته الصراع الطبقي العملي بمقدار ما يساعد الطبقة الثورية على بلوغ وعي مهامها التاريخية الخاصة بها وأهداف نضالها المباشرة، وهكذا يمكن ان ينشأ الوعي الطبقي لدى الطبقة الثورية عن الصراع الطبقي على الرغم من ايديولوجيا الطبقة المسيطرة وبمعارضتها(٨) . لكن فقط في الثورة بالذات، يمكن لاكثرية المضطهدين ان تتحرر من

---

(٧) هكذا فإن الوعي الطبقي البورجوازي أو حتى العامي ـ نصف البروليتاري الوليد في القرنين السادس والسابع عشر عبر عن نفسه دون جدال وفقاً لشكل ديني ؛ وهو لم يجد طريق المادية الصريحة إلا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، مع الانحطاط الكلي للنظام الاقطاعي الاستبدادي المطلق .

(٨) إن مفهوم غرامشي حول « الهيمنة السياسية ـ الاخلاقية » التي ينبغي أن تحوزها طبقة مضطهدة (بفتح الهاء) داخل المجتمع قبل أن تتمكن من اكتساب السلطة السياسية ، يعبر عن هذه الإمكانية بطريقة نفاذة بصورة خاصة . (انظر « المادية التاريخية وفلسفة بنديتو كروشي » ، ميلانو ١٩٦٤ ص ٢٣٦ ، وال « هوامش حول مكيافللي » ، ميلانو ١٩٦٤ ص ٢٩ ـ ٣٧ ، ٤١ ـ ٥٠) . ينتقد العديد من المنظرين الماركسيين مفهوم الهيمنة هذا أو يتحدثون عن نسبيته . انظر مثلاً ن . بولنتزاس ، « السلطة السياسية والطبقات الاجتماعية » باريس ١٩٦٨ .

سيطرة الايديولوجيا البورجوازية[٩]، التي تمارس (بفتح الراء) ـ خاصة في المجتمع البورجوازي، وإن كانت تظهر تجليات موازية في مجتمعات طبقية اخرى ـ ليس فقط، ولا حتى للوهلة الأولى، بفعل التحريك الايديولوجي لكن كذلك (وعلى وجه الخصوص) في التشابك الاقتصادي والاجتماعي اليومي بالذات وفي انعكاساته داخل رؤوس المضطهدين (بفتح الهاء) . إن ذلك يعني في المجتمع الرأسمالي : استبطان العلاقات السلعية ـ المرتبطة بصورة وثيقة بتشيىء العلاقات الانسانية، ـ الذي يمد

(٩) عبّر ماركس وانجلز عن ذلك في الجملة التالية : « هذه الثورة، لم يجر اذن جعلها ضرورية لأنها الوسيلة الوحيدة لقلب الطبقة المسيطرة وحسب، انما كذلك لأنه وحدها ثورة تسمح للطبقة التي تقلب طبقة اخرى ان تكنس كل عفن النظام القديم الذي يلتصق به فيما بعد، وبأن تصبح قادرة على تأسيس المجتمع على مرتكزات جديدة » (ماركس ـ انجلز، **الايديولوجية الالمانية**، المنشورات الاجتماعية، باريس ١٩٦٨، ص ٦٨) .

راجع ايضاً الملاحظة التالية لماركس في عام ١٨٥٠ ضد اقلية شبير في العصبة الشيوعية : « تضع الاقلية تصوراً دوغمائياً محل تصور نقدي، والمثالية محل المادية . فبالنسبة لها، ليست القوة الدافعة للثورة سوى قوة الارادة، وليس الظروف الفعلية . اما نحن من جهتنا فنقول للعمال : « يجب ان تجتازوا ١٥ و ٢٠ و ٥٠ سنة من الحروب الاهلية والنضالات الشعبية ليس لتغيير الظروف فحسب، **بل لتغيير انفسكم** ليصبح بامكانكم ممارسة السلطة السياسية » . اما انتم، فعلى عكس ذلك، تقولون : « اذا لم يكن بمقدورنا الاستيلاء على السلطة فوراً فحري بنا ان نذهب الى فراشنا » (كارل ماركس، **حول محاكمة الشيوعيين في كولن**، برلين ١٩١٤، ص ٥٢ ـ ٥٣) .

جـذوره في تعميم الانتـاج السلعي وفي تحـويـل قـوة العمـل إلى سلعـة ، كما في تعميم التقسيم الاجتمـاعي للعمل ضمن شـروط الانتـاج السلعي ، إنهاك المنتجين وتـوحيشهم عن طـريق العمـل المستلب (بفتـح الـلام) والاستغـلال وافتقـاد أوقـات فـراغ (ليس كميـاً وحسب ، بل كـذلك نـوعياً) ، الـخ . . . إنه فقط بمستـطاع ثورة ، أي نشـاط متنام فجـأة تقوم بـه الجماهـير خـارج اطـار العمل المستلب ، ان تفجـر طوق هـذا التشـابـك ، وهي بـالتالي قـادرة على جعـل التأثـير التزييفي لهـذا الـطوق عـلى وعي الجماهيرينحسر .

تحـاول النـظريـة اللينينيـة في التنـظيم أن تلتقط الجـدل الـداخلي لسيـرورة تشكل الـوعي الـطبقي السيـاسي ، الـذي لا يبلغ تـطوره الكـامـل إلا خـلال الثـورة بـالـذات . إلا ان ذلـك مشـروط ببدء هـذا التطور قبـل الثورة[١٠] . إنها تعمـل من اجـل هـذه الغايـة بفعل مقـولات ثلاث هي : الـطبقة العـاملة (جمهور الشغيلة) ؛ القسم المنـظم من الطبقـة العاملة عـلى مستـوى أولي

---

(١٠) أنظر لينين : « ولا يلاحظ حكيمنا أننا نحتاج ، بالضبط اثناء الثورة ، إلى نتائج نضالنا النظري (ما قبل الثوري ـ أ . م) ضد النقاد ، وذلك لكي نكافح بحزم مواقفهم العملية » . (لينين : « **ما العمل ؟** » الاعمـال المختارة في ثلاثة أجزاء ، موسكو ١٩٦٨ ، الجزء الأول ، ص ٢٤٧) . جاءت الثورة الالمانية بعد ذلك بسبعة عشر عاماً لتؤكد صحة هذا الحكم .

(الطليعة البروليتارية بالمعنى الواسع للكلمة)[11] ، والتنظيم الثوري ، الذي يشكله الشغيلة والمثقفون الذين تلقوا تكويناً ماركسياً ، على الأقل بصورة جزئية ، والذين يضطلعون بممارسة ثورية .

إن لمقولة « الطبقة في ذاتها » أصلها في مفهوم الطبقة الموضوعي كما حدده ماركس ، الذي يعتبر أن شريحة اجتماعية إنما يحددها موقعها الموضوعي في سيرورة الإنتاج ، **بالاستقلال** عن وعيها ، (كان ماركس الشاب قد دافع في **البيان الشيوعي** وفي الكتابات السياسية ما بين ١٨٥٠ و ١٨٥٢ ، عن مفهوم ذاتي للطبقة ينطلق من مبدأ أن الطبقة العاملة لا تتشكل كطبقة إلا عبر النضال ، أي انطلاقاً من حد أدنى من الوعي الطبقي) . يشير بوخارين إلى مقولة الطبقة الاجتماعية هذه بمفهوم « الطبقة لذاتها »، خلافاً للطبقة «في ذاتها»[12] . هذا المفهوم الموضوعي

---

(١١) في هذا الخصوص ، يتحدث لينين في « **ما العمل ؟** » عن العمال « الاشتراكيين الديموقراطيين » والعمال « الثوريين » ، بالمقارنة مع العمال « الرجعيين » .

(١٢) ن . بوخارين ، **نظرية المادية التاريخية** ، باريس ١٩٦٧ ، ص ٣١٧ - ٣١٩ .

« ان الظروف الاقتصادية حولت اولاً شعب البلد الى عمال . وقد خلقت سجادة الرأسمال لهذا الجمهور وضعا مشتركا ومصالح مشتركة، ولهذا فان هذا الجمهور قد اصبح طبقة في مقابل رأس المال، إلا أنه لم يصبح =

للطبقـة يبقى اساسيـاً من اجـل تحليـل الـرأسمـاليـة[١٣] ، وفقـاً للتصـور اللينيني للتنـظيم ، كـما بـالنسبـة لانجلز ولـلاشتـراكيـة الديمقراطية الالمانية بقيادة انجلز وبيبل وكاوتسكي .

= بعد «طبقة لذاتها » . وفي الصراع الذي لم نشهد سوى بعض مراحله ، يصبح هذا الجمهور متحدا ، ويشكل نفسه كطبقة لذاتها » .(كارل ماركس ، **بؤس الفلسفة** ، نيويورك ١٩٦٣ ، ص ١٧٣) .

(١٣) انظر المقطع ، الذي لم ينتقده انجلز ، من برنامج ارفورت للحزب الاشتراكي الالماني حيث يجري وصف البروليتاريين بانهم الطبقة المفصولة عن وسـائل انتاجها ، طبقة المأجورين المجبرين على بيع قوة عملهم ، وحيث يتم وصف صراع الطبقات كصراع موضوعي بين المستغلين (بفتح الغين) والمستغلين في المجتمـع الحديث (بـالاستقلال عن درجـة تنـظيم العمـال المـأجـورين أو وعيهم) . نجد بعد ملاحظة هذه الواقعة الموضوعية الاضافة التالية في نهاية الجزء العام من البرنامج : « إنها مهمة الحزب الاشتراكي ـ الديمقراطي أن يجعل من النضال الطبقي العمالي نضالاً واعياً وموحداً وأن يحدد له الهدف الذي تفرضه عليه طبيعته » . نجد فيه كذلك التأكيد الصريح على أنه يمكن أن توجد « طبقات وصراعات طبقية في المجتمع الرأسمـالي دون أن تكون الطبقة العاملة واعية اثناء نضالها لمصالحها الطبقيـة » . يتكلم البرنـامج في الفقرة الثامنة على « الشغيلة الواعين من كل البلدان » ، يقترح انجلز هنـا تغييراً يشدد مرة اخرى على أنه يميز إطلاقاً مفهومي الـطبقة « المـوضوعي » و « الذاتي » : بدل كلمة « واعين » (. . .) أقول لكي يكون مفهوماً بصورة شاملة وقابلاً الترجمة للغات الاجنبية : « مع الشغيلة المتشبعين بوعي حالتهم الطبقية » أو شيئاً مماثلاً . (فريدريك انجلس ، « **نقد برنامج الاشتراكيين ـ الديمقراطيين** » في : ماركس أنجلز ، **المؤلفات** ، الجزء الثـاني والعشرين ، الصفحة ٢٣٢ ، برلين ١٩٦٣) .

لا يكتسب مفهوم حزب ثوري طليعي (والثوري المحترف) معنى علمياً ، كما يبرزه لينين ذاته[١٤] ، إلا لأن ثمة طبقة ثورية موضوعياً قادرة على خوض صراع طبقي ثوري ، وبشرط أن يكون مرتبطاً بنضال طبقي من هذا النوع . بدون هذا الارتباط ، يمكن للنشاط الثوري ان ينتج **نواة** حزب ، لكن ليس حزباً . وهذه تتعرض لمخاطر الانحلال باتجاه هواية ذاتية فئوية . إن المفهوم اللينيني للتنظيم يستتبع عدم وجود طليعة تعلن ذاتها بذاتها ، وأنه ينبغي للطليعة ، وهي تعمل على إرساء رابط ثوري يشدها إلى الجزء المتقدم من الطبقة وإلى نضالاته الفعلية ، أن تكتسب الاعتراف بها كطليعة (أي الحق التاريخي بالعمل كطليعة) .

إن لمقولة « الشغيلة المتقدمين » أساسها في التراتب الموضوعي الحتمي للطبقة العاملة ، المتناسب مع أصلها التاريخي ، كما مع موقعها في سيرورة الانتاج الاجتماعي ، ومع وعيها الطبقي . إن تشكل الطبقة العاملة كمقولة موضوعية هو

---

(١٤) لينين : « طبعاً إن هذا النجاح (في بناء الحزب ـ أ . م) ينجم بصورة أساسية عن واقع أن الطبقة العاملة ، التي خلقت نخبتها الاشتراكية ـ الديمقراطية ، تتميز عن كل الطبقات الأخرى في المجتمع الرأسمالي ، لأسباب اقتصادية موضوعية ، بقابليتها الرفيعة للتنظيم . دون هذه القابلية ، لما كانت منظمة الثوريين المحترفين سوى لعبة ، سوى مغامرة . . . (« اثنتا عشرة سنة » في : لينين ، **الأعمال الكاملة**) .

ذاته سيرورة تاريخية . إن بعض اقسام الطبقة العاملة مكونة من المتحدرين من عمال المدن او العمال الزراعيين والفلاحين المنزوعي الملكية . بينما تأتي أقسام أخرى من البورجوازية الصغيرة (الفلاحون ، الحرفيون، الخ . .) . يشتغل جزء من الطبقة العاملة في المشاريع الكبرى حيث تساعد العلاقات الاقتصادية والاجتماعية على تطور وعي طبقي أولي (وعي عدم إمكانية حل « المسائل الاجتماعية » إلا بالعمل والتنظيم الجماعيين) . ويشتغل قسم آخر في المشاريع الصناعية الصغيرة والمتوسطة أو في ما يسمونه المصالح ، حيث تولد الثقة الاقتصادية وفهم ضرورة أعمال جماهيرية واسعة بصورة أبطأ بكثير مما في المشاريع الصناعية الكبرى .

إن بعض أقسام الطبقة العاملة تعيش منذ زمن بعيد في المدن الكبرى ، وهي تعرف القراءة والكتابة ، ولها خبرة التنظيم النقابي وتربية سياسية وثقافية (تنظيمات الشبيبة ، الصحافة العمالية ، تكوين الشغيلة ، الخ . . .). وتعيش أقسام اخرى ، على العكس من ذلك ، في مدن صغيرة أو في الريف (ينطبق ذلك مثلاً على قسم مهم من عمال المناجم الاوروبيين حتى في الثلاثينات) ، ولا تمارس أية حياة اجتماعية جماعية ، كما أنها لم تعرف تقريباً أي ماضٍ نقابي ولا أي تكوين سياسي وثقافي في الحركة العمالية المنظمة .

ان بعض قطاعات الطبقة العاملة تولد منذ مئات السنين في امم مستقلة دأبت طبقتها المسيطرة على اضطهاد الامم الاخرى لفترات طويلة . بينما تولد قطاعات اخرى في بلدان قاتلت عشرات او مئات السنين من اجل حريتها القومية ، او ان هذه القطاعات كانت تعيش في ظل العبودية والقنانة قبل ما لا يزيد على قرن من الزمن .

اذا أضفنا ايضاً إلى كل هذه التمايزات التاريخية ـ البنيوية الطاقات الشخصية المختلفة لكل شغيل مأجور ـ ليس فقط الفروق في الذكاء والكفاآت لكن كذلك في الطاقة وفي قوة الطبع ، في النضالية كما في وعي الإمكانات الذاتية ـ نفهم تماماً عند ذلك أن تراتب الطبقة العاملة في شرائح مختلفة (بالنسبة إلى درجة الوعي الطبقي) هو نتيجة طبيعية محتومة لتاريخ الطبقة العاملة . إنها الصيرورة التاريخية للطبقة تنعكس عند لحظة معينة في مستويات الوعي المختلفة لديها .

إن جذور مقولة الحزب الثوري هي في واقع أن الاشتراكية علم لا يمكن امتلاكه إلا في الدرجة الأخيرة في كليته ، ليس بصورة جماعية ولكن بالعمل الفردي . إن الماركسية هي ذروة (وبصورة جزئية تخطي) علوم اجتماعية تقليدية ثلاثة على الأقل : الفلسفة الالمانية الكلاسيكية ، الاقتصاد السياسي الكلاسيكي والعلم السياسي الفرنسي الكلاسيكي (الاشتراكية

والتأريخ الفرنسي). إن استيعابها يفترض مسبقاً تمرساً بالجدل المادي ، بالمادية التاريخية ، بالنظرية الاقتصادية الماركسية وبالتاريخ النقدي للثورات وللحركة العمالية الحديثة ؛ هكذا فقط يمكن ان تصبح في كليتها أداة صالحة لتحليل الواقع الاجتماعي ورسملة خبرات قرن من النضالات العمالية . إنه من العبث الاعتقاد ان هذه المعارف وهذا العلم يمكن أن تنبت « تلقائياً » من العمل على المخرطة أو على آلة الحساب[١٥] . إن

---

(١٥) إن الكثير من منتقدي المفهوم اللينيني للتنظيم ، ومن بينهم بليخانوف (« مركزية او بونابرتية » ، في الايسكرا ، العدد ٧٠ ، صيف ١٩٠٤) يستندون إلى مقطع من « **العائلة المقدسة** » لإثبات العكس .

يقول المقطع : « إذا كان الكتاب الاشتراكيون ينسبون إلى البروليتاريا هذا الدور التاريخي ، فليس ذلك إطلاقاً لكونهم يعتبرون البروليتاريين « آلهة » ، كما يتظاهر النقد بالاعتقاد . إن العكس هو الصحيح . يكتمل عملياً في البروليتاريا المتطورة كلياً التجرد من كل إنسانية ، حتى من « **مظهر** » الانسانية . تتكثف في شروط حياة البروليتاريا كل شروط حياة المجتمع الحالي ، في ما يمكن أن تنطوي عليه من أعلى درجات انعدام الانسانية . إن الإنسان قد فقد ذاته في البروليتاريا ، إلا أنه اكتسب في الوقت ذاته الوعي النظري لهذا الفقدان للذات ؛ زد على ذلك أن البؤس الذي لم يعد بمقدوره تجنبه أو تزيينه ، البؤس الذي ينفرض عليه حتماً ـ كتعبير عملي عن « **الضرورة** » ـ إنما يضطره مباشرة للتمرد على انعدام إنسانية كهذا ؛ هذا هو السبب في أن البروليتاريا تستطيع وينبغي بالضرورة أن تحرر ذاتها بذاتها . والحال أنها لا تتمكن من إلغاء شروط حياتها الخاصة بها دون إلغاء كل شروط الحياة اللاإنسانية للمجتمع الحالي ، التي تختصرها حالتها هي . ليس عبثاً أنه =

واقـع كـون المـاركسيـة كعلم هي التعبـيـر عن الـوعي الـطبقي البروليتاري في درجة تطوره العليـا لا يعني شيئاً آخـر غير مـا يلي : فقط بـالاختيار الفـردي ، يمكن للأعضـاء الاكثر خبـرة ، الاكثر ذكاء ، والاكثر نضالية في صفوف البروليتـاريا أن يكـوّنوا مبـاشرة

= سيمر بالمدرسة القاسية ، لكن المقوية ، لـ « العمل » . لا يتعلق الأمر بمعرفة أي هدف « يتمثله » مؤقتاً هذا أو ذاك من البروليتاريين ، أو حتى البروليتاريا ككل . يتعلق الأمر بمعرفة **ما هي البروليتاريا** ومـاذا ستضطر تـاريخياً أن تفعله ، وفاقاً لهذه **الكينونة** . إن هدفها وفعلها التـاريخي مرسـومان لهـا ، بصورة ملموسة ولا رجعة فيها ، في حالتها الخاصة بها ، كما في كل تنظيم المجتمع البورجوازي الحالي . إنه لمن النافع أن نعرض هنا أن قسماً كبيراً من البروليتاريا الانجليزية والفرنسية أصبح **واعياً** مهمته التاريخية وهو يعمل دون كلل لـرفع هـذا الوعي إلى أعـلى درجات الصفـاء . (مـاركس ـ انجلز ، « **العائلة المقدسة** » المنشورات الاجتماعية ، باريس ، ١٩٦٩ ، ص ٤٧ ـ ٤٨) .

بـالاستقلال عن واقـع ان ماركس وانجلز كـانا شبـه عاجـزين عام **١٨٤٤ ـ ٤٥** عن إعطاء نظرية مادية عن الوعي الطبقي والتنظيم البروليتاري (يكفي مقارنة الجملة الاخيرة من الاستشهاد المذكور أعلاه الذي كتبه انجلز بعد ذلك بأربعين عاماً حول موضوع الطبقة العاملة الانجليزية ، كي نقتنع بذلك) ، فإن هذا المقطع يقول بالتحديد نقيض ما يريد بليخانوف تقويله إياه . إنه يقول فقط إن **الحالة** الاجتماعية للبروليتاريا تهيئها **للعمل** الثوري الجذري (تخطي الملكية الخاصة) وإن الهدف الاشتراكي العام « مكتوب » في شروط حياتها . إنه لا يقـول ان « شروط الحيـاة اللاإنسـانية » تجعـل هذه البروليتاريا قادرة بصورة غامضة مثالية على أن تستوعب « تلقائياً » كل العلوم الاجتمـاعية . أنـظر بصدد مقـال بليخانـوف ، صموئيـل هـ . بـارون ، « **بليخانوف** » ستانفورد يونيفرستي برس ، **١٩٦٣** ، ص **٢٤٨ ـ ٢٥٣** .

وبصورة مستقلة وعياً طبقياً كهذا إلا أنه ، لكون هذا الامتلاك فردياً ، فهو يمكن كذلك أن يكون في متناول أعضاء طبقات أخرى أو شرائح اجتماعية أخرى (مثقفين وطلاباً ثوريين قبل كل شيء)[١٦]. إن أي تصور آخر يكمن في مثلنة idéaliser الطبقة العاملة ، وبالدرجة الاخيرة الرأسمالية ذاتها .

النضال الطبقي البروليتاري والوعي الطبقي البروليتاري

إن توحيد (التوحيد كسيرورة) الكتلة masse البروليتارية ، الطليعة البروليتارية والحزب الثوري ، مشروط بالانتقال من النضال الطبقي البدائي إلى النضال الطبقي **الثوري** ، أو بدقة أكثر ، إلى الثورة البروليتارية ، وبانعكاسات

(١٦) جرى شبه نسيان ان الحركة الاشتراكية الروسية تأسست كذلك في قسم كبير منها على يد طلاب ومثقفين ، وأن هؤلاء واجهتهم قبل ثلاثة ارباع القرن تقريباً مشكلة مشابهة لتلك التي تواجه المثقفين اليوم . « مشابهة » لا تعني بالطبع «مماثلة». إذا جرت المقارنة مع ذلك العصر ، فلا بد من الاشارة الى أنه يوجد اليوم عائق إضافي يتمثل بالتنظيمات الإصلاحية التحريفية الجماهيرية للطبقة العاملة ، واحتياطي إضافي هو التجربة التاريخية الضخمة التي راكمتها مذ ذاك الحركة الثورية . يتكلم لينين بوضوح في « **ما العمل ؟** » على قدرة المثقفين على امتلاك « معارف سياسية » أي الماركسية العلمية . (ما العمل ؟ ص ١٦٨ ـ ١٦٩) .

هذا التحول على الوعي الطبقي للجماهير المأجورة .

إن الصراع الطبقي موجود منذ آلاف السنين ، دون أن يكون الاشخاص المشتركون فيه قد فهموا ما يفعلون . لقد خيضت نضالات طبقية بروليتارية قبل أن توجد حركة اشتراكية بزمن طويل ، وبالأحرى قبل الاشتراكية العلمية .

إن النضال الطبقي البدائي ـ إضرابات ، إنقطاعات عن العمل من اجل مطالب متعلقة بالأجور ، بتخفيض ساعات العمل أو بتحسينات اخرى في شروط العمل ـ كان وراء ولادة التنظيم الطبقي البدائي (صناديق التضامن ، الشكل الأولي للنقابات) ، وإن بقيت هذه الاشكال التنظيمية مؤقتة ومحدودة في الزمن . إن النضال الطبقي البدائي التنظيم الطبقي البدائي والوعي الطبقي البدائي هي إذن الحاصل **المباشر للعمل** ، ووحدها التجربة المستخلصة من هذا العمل يمكن أن تكوّن الوعي وترتفع به . إنه من قوانين التاريخ أن **الجماهير العريضة** لا تستطيع رفع وعيها إلا عبر العمل .

إلا أن النضال الطبقي العفوي للعمال المأجورين يترك ، حتى في شكله الأكثر بدائية ، أثراً ما في نمط الانتاج الرأسمالي : **إن الوعي يتكثف ، يصبح ملموساً في التنظيم المتواصل** . يقتصر نشاط معظم الشغيلة على النضال (إن معظم الشغيلة غير فاعلين إلا اثناء النضال ، ما أن ينتهي هذا حتى ينسحبوا عاجلاً أو آجلاً

إلى الحياة الخاصة ، أي إلى النضال من اجل الحياة) . تتميز الطليعة عن الأكثريات بكونها لا تغادر حتى في فترات النضال النّشط ميدان صراع الطبقات وتواصل بصورة ما « النضال بوسائل أخرى » . تحاول أن تعزز صناديق المقاومة التي تظهر اثناء النضال محولة إياها إلى أموال إضراب دائمة ، أي إلى نقابات[17] . تجتهد في بلورة وتدعيم الوعي الطبقي الأولي الذي يولد في غمرة الصراع ، عن طريق إصدار جريدة عمالية وتنظيم حلقات تكوين عمالي . إنها تشكل هكذا لحظة التواصل إزاء العمل الجماهيري المتقطع بالضرورة ، لحظة الوعي إزاء الحركة الجماهيرية العفوية في ذاتها . إن التجربة العملية ، أكثر بكثير من النظرية ، من العلم ، من الفهم الفكري للمجتمع ككل ، هي التي تدفع الشغيلة المتقدمين على طريق التنظيم الدائم وتنمي الوعي الطبقي[18] . لأن النضال برهن أن حل صناديق

---

(١٧) أنظر بهذا الصدد : ك . ماركس ، « بؤس الفلسفة » . نجد في كتاب أ . ب . توميسون « **شغل الطبقة العاملة الانكليزية ، لندن** » ١٩٦٨ ، وصفاً غنياً بالإمكانات للأشكال الوليدة للنقابات وصناديق مقاومة الشغيلة .

(١٨) إن الطابع المتقطع بالضرورة للأعمال الجماهيرية يجد تفسيره في الوضع الطبقي للبروليتاريا بالذات . طالما لم تتوصل إلى قلب نمط الانتاج الرأسمالي ، فإن كل عمل جماهيري هو محدود في الزمان نظراً للقدرات المالية والجسدية والفكرية للشغيلة على المقاومة في وجه خسارة الأجور . من البديهي أن قدرة المقاومة تلك لا يمكن أن تكون بلا حدود . إن إنكار ذلك يعني إنكار شروط وجود البروليتاريا بالذات .

المقاومة بعد كل إضراب يضر بفعالية الإضراب ويعود بالضرر على الصندوق ، يجري العمل على الانتقال إلى مال الإضراب الدائم . لأن التجربة تثبت أن بياناً عارضاً له تأثير أقل من تأثير جريدة[١٩] تظهر بصورة متواصلة ، يجري تأسيس الصحافة العمالية . إن وعياً يمد جذوره في تجربة النضال المباشرة هو وعي تجريبي - براغمائي ، يمكن بالطبع ان يخصب العمل ، لكنه يبقى ادنى بكثير من فعالية الوعي العلمي الشامل اي الفهم النظري . لا يمكن لتنظيم الطليعة الثوري أن يعزز هذا الفهم إلا شريطة أن يسعى من جانبه إلى الارتباط بممارسة صراع الطبقات ، أي أن يخضع النظرية إلى الامتحان القاسي للإثبات العملي . من وجهة نظر الماركسية في عز نضجها - ماركس بالذات كما لينين - إن نظرية « صحيحة » مقطوعة عن الممارسة ، هي على الدرجة ذاتها من ضلال « ممارسة ثورية » لا تدعمها نظرية علمية . لا يقلل هذا بالطبع من أهمية وضرورة الانتاج النظري : إنه يشير فقط إلى انه لا يمكن للجماهير المأجورة والافراد الثوريين أن يحققوا الوحدة بين النظرية والممارسة إلا انطلاقاً من نقاط انطلاق مختلفة ووفقاً لدينامية متمايزة .

---

(١٩) أنظر بعض الأمثلة من السنوات الأولى لنقابات المعادن الالمانية : ٧٥ عاماً من تاريخ نقابات صناعة التعدين ، فرانكفورت ١٩٦٦ ، ص ٧٢ - ٧٨ .

يمكننا أن نرسم لهذه المحاكمة البيان التالي :

جماهير واسعة :	عمل ———	تجربة ——→	وعي
شغيلة متقدمون :	تجربة ———	وعي ——→	عمل
نواة ثورية :	وعي ———	عمل ——→	تجربة

إذا قلبنا هذا الرسم البياني لنستخلص منه الاستنتاجات العملية ، نحصل على الصورة التالية :

جماهير واسعة :	عمل ———	تجربة ——→	وعي
نواة ثورية :	وعي ———	عمل ——→	تجربة
شغيلة متقدمون :	تجربة ———	وعي ——→	عمل

هذا الرسم البياني الشكلي يكشف سلسلة من الاستنتاجات فيها ملخص ديناميـة الوعي الطبقي ، استنتاجات سبق وانطوى عليها التحليل السابق ، لكنها ممكنة الإدراك الآن في موقعها ومرماها الحقيقيين . إنه صعب نسبياً استثارة العمل الجماعي للشغيلة المتقدمين (« القادة الطبيعيين » للطبقة العاملة في المنشأة) وذلك بالضبط لأن تحريكه لا يتوقف على مجرد القناعة (كما الحال بالنسبة للأنوية الثورية) ولا على القابلية العفوية الصرفة للانفجار (كما الحال مع الجماهير الواسعة) .

إن التجربة العملية للنضال ، التي هي الحافز الأساسي لعمل الشغيلة المتقدمين ، تجعلهم بالضبط يترددون حيال الانخراط في الأعمال الكبرى . لقد هضموا دروس الأعمال السابقة وهم يعرفون أن انفجاراً غير كاف إطلاقاً لبلوغ الهدف .

ليس لديهم الكثير من الأوهام عن قوة الخصم (ناهيك عن « أريحيته ») وعن مدى دوام حركة الجماهير . هنا تكمن بالتحديد « التجربة » الكبرى للنزعة الاقتصادية .

فلنوجز :

١ ـ إن بناء الحزب الثوري يعني انصهار وعي النوى الثورية بوعي الشغيلة المتقدمين .

٢ ـ إن إنضاج وضع ما قبل الثوري (ثوري بالقوة) ينجم عن التلاقي المتنامي لعمل الجماهير الواسعة وعمل الشغيلة المتقدمين .

٣ ـ إن وضعاً ثورياً ـ أي امكانية استلام السلطة الثورية ـ يتحقق عندما ينجز الانصهار بين أعمال الطليعة الثورية وأعمال الجماهير ، كما بين الوعي الثوري ووعي الطليعة العمالية[٢٠] . لا تنخرط الجماهير الواسعة في النضال

---

(٢٠) لا يمكن ان نعرض هنا بالتفصيل الفروق بين وضع ثوري ووضع ما قبل ثوري . يمكننا إذا اختصرنا ان نقول انه في وضع ثوري يتجسد التهديد الذي يحيق بالنظام الاجتماعي على المستوى التنظيمي ، في ارساء اجهزة ازدواجية سلطة للبروليتاريا (أي اجهزة كامنة لممارسة السلطة العمالية) ، وذاتيا في المطالب الثورية المباشرة للجماهير ، التي لم يعد يمكن للطبقة المسيطرة ان تستوعبها . بينما يتميز الوضع ما قبل الثوري باتساع نضالات جماهيرية الى حد يهدد موضوعياً استمرار وجود النظام الاجتماعي .

الطبقي الذي يعود أصله الأساسي إلى تناقضات نمط الانتاج الرأسمالي ، إلا إزاء « مسائل حيوية » مباشرة . وينطبق هذا على كل عمل جماهيري ، حتى السياسي منه . إن مشكلة تحول النضال الطبقي إلى نضال ثوري مشروطة إذن ليس فقط كمّياً ، بل كذلك نوعياً . إن حلها يفترض مسبقاً عدداً مرتفعاً كفاية من الشغيلة المتقدمين القادرين على تعبئة الجماهير حول أهداف تضع موضع الاتهام دوام المجتمع البورجوازي ونمط الانتاج الرأسمالي : نرى هنا الاهمية المركزية للمطالب الانتقالية ، الدور الاستراتيجي الذي يلعبه العمال الذين اصبحوا يعرفون ، بكامل تجربتهم ، أن ينشروا هذه المطالب والوزن التاريخي للتنظيم الثوري الذي وحده هو القادر على وضع برنامج شامل للمطالب الانتقالية ، يتناسب في الوقت ذاته مع الشروط التاريخية الموضوعية والحاجات الذاتية للجماهير . **ليست ثورة بروليتارية منتصرة ممكنة إلا شريطة النجاح في استيفاء هذه العوامل مجتمعةً**[٢١] .

المفهوم اللينيني للخطة الاستراتيجية المركزية

سبق وقلنا إن النظرية اللينينية حول التنظيم هي في

(٢١) أنظر أبعد قليلاً الجذور اللينينية لهذه الاستراتيجية .

الأساس وقبل كل شيء نظرية عن الثورة . إن الضعف الكبير لمحاجة روزا لوكسمبورغ ضد لينين ، خلال سنتي ١٩٠٣ - ١٩٠٤ ، ناجم عن كونها لم تفهم جيداً هذه النقطة . إنه لمميز أن يكون مفهوم المركزة الذي تهاجمه روزا لوكسمبورغ (وتؤسسه في الوقت ذاته) مجرد مفهوم تنظيمي . يجري اتهام لينين بأنه ينهج سياسة « مركزية قصوى » ويعدم اي مبادرة للعناصر الدنيا في الحزب[٢٢] .

لكن إذا نظرنا عن كثب أكثر إلى نظرية التنظيم كما طورها لينين ، يتكشف أن التشديد لا يتناول إطلاقاً الجانب التنظيمي الشكلي للمركزة ، **بل وظيفتها السياسية الاجتماعية** . نجد في صميم « **ما العمل ؟** » مفهوم تطوير الوعي الطبقي البروليتاري الى وعي طبقي سياسي عبر **نشاط سياسي إجمالي** يثير كل مسائل العلاقات الطبقية الداخلية والخارجية ويقدم لها **جواباً** ماركسياً : « في الواقع ليس رفع نشاط الجماهير العمالية ممكناً **إلا إذا لم نقتصر** على التحريض السياسي على الصعيد الاقتصادي . ان احد الشروط الاساسية لتوسيع التحريض السياسي هو تنظيم التشهير السياسي في جميع الميادين . هذا التشهير هو وحده **القادر** على تكوين الوعي السياسي واستثارة نشاط الجماهير الثوري » .

---

(٢٢) روزا لوكسمبورغ ، « المسألة التنظيمية للاشتراكية الديموقراطية » ، روزا لوكسمبورغ تتكلم (نيويورك : ١٩٧٠) ص ١١٢ - ١٣٠ ٧

ونقرأ أبعد بقليل : « لا يمكن ان يكون وعي الطبقة العاملة ، وعياً سياسياً حقاً ، إذا لم يتعود العمال الرد على كل حالة من حالات الطغيان والظلم والعنف وسوء الاستعمال على اختلافها **بصرف النظر عن الطبقة** التي توجه اليها ، على أن يكون الرد من وجهة النظر الاشتراكية الديمقراطية ، لا من اية وجهة نظر اخرى . ولا يمكن ان يكون وعي جماهير العمال وعياً طبقياً حقاً إذا لم يتعلم العمال الاستفادة من الوقائع والحوادث السياسية الملموسة والعاجلة حتماً في الوقت نفسه ، لمراقبة كل طبقة من الطبقات الاجتماعية الاخرى في جميع مظاهر حياتها العقلية والاخلاقية والسياسية ، إذا لم يتعلموا ان يطبقوا في العمل التحليل المادي والتقدير المادي **لجميع** وجوه نشاط وحياة جميع طبقات السكان وفئاتهم وجماعاتهم . إن كل من يوجه انتباه الطبقة العاملة وقوة ملاحظتها ووعيها إلى نفسها فقط ، أو إلى نفسها بالدرجة الأولى، ليس باشتراكي ـ ديمقراطي ، لأن معرفة الطبقة العاملة لنفسها مرتبطة ارتباطاً لا ينفصم بمعرفتها معرفة واضحة تامة للعلاقات المتبادلة بين جميع طبقات المجتمع الراهن ، معرفة ليست نظرية وحسب. . . والأصح ان نقول : ليست نظرية بمقدار ما هي مبنية على تجربة الحياة السياسية »[٢٣] .

للسبب ذاته ، يشدد لينين على ضرورة أن يلتزم الحزب

---

(٢٣) لينين : « ما العمل » (ص ١٦٥ من الكتاب المذكور) .

الثـوري بكـل المـطالب ، كـل الحـركـات التقـدميـة ، حتى « الديمقراطية الصرفـة » ، **بكل الـطبقات والشـرائح الاجتمـاعية** المضطهدة . إن الخطة الاستراتيجية المركـزية التي يعـرضها لينـين في ما العمل ؟ [٢٤] **هي خـطة تحريض يقـوم به الحـزب يـدمـج ويجمـع كل التمـردات ، كـل حـركـات الاحتجـاج أو المقـاومـة الأولية ، العفوية ، المبعثرة ، المحلية « الصرفـة » أو القطاعيـة .** إن التـأكيـد عـلى المـركـزة هـو فقط في الصعيـد السيـاسي ، لا في

---

(٢٤) بـالنسبة للصلة المبـاشرة بـين هذه الخـطة والثورة ، أنـظر « ما العمـل ؟ » (الكتـاب المذكـور سابقـاً ص ٢٣٥) . صحيح اننـا نجـد ايضـاً في « مـا العمل ؟ » مقاييس تنظيمية للمركزة ، لكنها محكومة حصراً بشروط السرية . فيـما يخص الاحزاب الثـورية « الشـرعية » ، يؤ يـد لينين « ديمقـراطويـة » واسعة : ان الرقابة العامة (بالمعنى الدقيق للكلمة) على كل خطوة يخطوها عضو في الحزب في نشاطه السياسي ، تخلق أوالية تعمل اوتوماتيكياً وتضمن ما يدعونه في البيولوجيا « بقاء الأصلح » . وبفضل هذا « الانتخاب الطبيعي » الناشىء عن العلنية التامة ، وبفضل المبدأ الانتخابي والرقابة العامة ، يصبح كل عضو من الأعضاء في نهاية الأمر « في المكان الذي خلق له » ويقوم بالعمل الذي يتناسب احسن التناسب مع قواه وكفاءاته ويتحمل بنفسه جميع تبعات اخطائه ويظهر امام الجميع قدرته على فهم اخطائه وتجنبها » . (لينين ، « ما العمل ؟ » الصفحة ٢١٩ من الكتاب المذكـور) مارست لـوكسمبورغ من جهتها ، ومن ضمن الحزب البولندي ، الذي تميز ايضاً بتغييرات تـآمريـة كبيرة ، مارست (او قبلت) مركزية لم تكن اقل تشدداً من مركزية البلاشفة (مثلا ، الصراع مع جناح راديـك في وارسو والتهم الخـطيرة التي وجهت اليه) .

الصعيد التنظيمي . ليس للمركزة التنظيمية الشكلية من هدف سوى السماح بتحقيق هذه الخطة الاستراتيجية .

لأن روزا لوكسمبورغ لم تستطع أن تدرك هذه النواة المركزية ، فهي اضطرت في محاجتها إلى تطوير مفهوم آخر عن تكون الوعي الطبقي السياسي وعن تهيئة وضع ثوري . وهنا بالضبط يتكشف تماماً كم كانت وجهة نظرها خاطئة . إن تصور روزا لوكسمبورغ الذي يرى « ان الجيش الثوري لا يجري تجنيده إلا في النضال بالذات وأن مهام المعركة لا تظهر له بوضوح إلا خلال النضال »[٢٥] ، قد كذَّبه التاريخ . حتى في النضالات العمالية الأكثر قساوة وطولاً لم يستطع جمهور الشغيلة أن يميز ، أو أن يميز بشكل كاف، ماذا كانت مهام المعركة (فلنفكر فقط بالاضرابات العامة في فرنسا عام ١٩٣٦ وعام ١٩٦٨ ، كما بالنضالات الكبرى للشغيلة الايطاليين عام ١٩٢٠ ، وعام ١٩٤٨ وعام ١٩٦٩ ، كما بالصراعات الطبقية في اسبانيا بين عامي ١٩٣١ و ١٩٣٧) . إن تجربة النضال لا تكفي لاكتساب وعي واضح لمهام نضال جماهيري ما قبل ثوري او حتى ثوري على نطاق واسع . إن هذه المهام لا تتوقف فقط على أسباب مباشرة فجرت النضال ؛ لا يمكن تحديدها إلا انطلاقاً من تحليل عام لتطور المجتمع بأكمله ، للطور التاريخي الذي بلغه نمط

(٢٥) روزا لوكسمبورغ تتكلم ، مصدر سابق ، ص ١١٨ .

الانتـاج الرأسمـالي وتناقضـاته الـداخلية ، كـما لتوازنات القوى الوطنية والعالمية بين الطبقات . إنه لوهم كلي أن نعتقـد انه بـدون إعداد طويل وصلب ، دون التجربة العملية التي راكمهـا الشغيلة المتقـدمون وهـم يحـاولون نقـل برنـامج ثـوري للجماهـير ، وفقط بـالاستنـاد إلى الأعمـال الجمـاهيـريـة يمكن تكـوين وعي مـلائم لمتطلبات الوضع التـاريخي . يمكن التقدم كـذلك خـطوة اضافيـة والقول إن البروليتـاريا لن تحقق أبـداً أهدافهـا التاريخيـة إذا كانت التـربيـة والتكـوين والامتحـان العمـلي التي لا غنى غنهـا لـطليعـة بروليتاريـة ، عبر الإعـداد والتحريض حـول برنـامج ثـوري ، لم تسبق انفجار النضالات الجماهيرية التي وحدها تجعل تـطور وعي ثـوري **ممكناً** . هـذا هو الـدرس المأسـاوي للثـورة الالمـانيـة بعـد الحرب العالمية الأولى التي تحطمت بالتحديـد على هـذه الصخرة : غياب طليعة مربَّاة .

إن هـدف خطة لينـين الاستراتيجيـة هو خلق طليعـة كهذه عن طريق الربط العضـوي للكادرات الثـورية المعـزولة بـالشغيلة المتقـدمـين . إن هــذا الهـدف مستحيــل التحقيق ، دون نشـاط **سيـاسي** كلي يخـرج الشغيلة المتقـدمـين من إطـار النشـاط النقـابي الصـرف أو حتى عـلى مستـوى المؤسسـة حصـراً . إن المعـطيـات التجريبية التي نمتلكها اليوم تثبت أن حـزب لينين قبـل وأثناء ثـورة ١٩٠٥ ، وبعد استعادة الحركة الجماهيرية نشاطها عام ١٩١٢ ،

كان يجيب عملياً عن التحديد المعطى لهكذا حزب[٢٩] .

ينبغي أن نأخذ بالاعتبار كذلك وجهاً آخر إذا أردنا أن ندرك كلياً معنى الخطة الاستراتيجية اللينينية . إن أي تصور سياسي متمحور حول ثورة ينبغي حتماً ان يهتم بمسألة مواجهة مباشرة مع جهاز قمع الدولة ، كما بمسألة استلام السلطة السياسية . لكن ما ان يجري دمج إشكالية كهذه في التصور الإجمالي حتى نجد أنفسنا من جديد متوجهين لصالح المركزة . كان لينين وروزا لوكسمبورغ يتفقان حول واقع أن الرأسمالية والدولة البورجوازية يمارسان تأثيراً ممركزاً عظيماً على المجتمع الحديث[٢٧] وأنه من قبيل الضلال الصرف الأمل بالتمكن

---

(٢٦) انظر بهذا الصدد دافيد لاين ، « جذور الشيوعية الروسية »، آسن ، ١٩٦٩ . حاول لاين أن يحلل الوضع الاجتماعي لأعضاء الاشتراكية ـ الديمقراطية الروسية والجناحين المنشفي والبلشفي انطلاقاً من المعطيات التجريبية ما بين عامي ١٨٩٧ و ١٩٠٧ واستخلص من ذلك أنه كان بين البلاشفة أعضاء عمال ومناضلون نشطون أكثر مما كان بين المناشفة (ص ٥٠ ـ ٥١) .

(٢٧) « لم يعد ثمة شك في ان الاشتراكية الديمقراطية عموماً تشهد داخلها تياراً ممركزاً (بكسر الكاف) قوياً . إن الاشتراكية ـ الديمقراطية النابعة من الارض الاقتصادية الرأسمالية التي تتجه بصورة طبيعية إلى المركزة ، والمكيفة عبر النضال مع الاطار السياسي للدول البورجوازية الممركزة الكبرى ، هي منذ البدء خصم نموذجي لكل تخصيصية وللفدرالية القومية . فهي بتربيتها على الدفاع عن المصالح الاجمالية للبروليتاريا كطبقة حيال المصالح الجزئية او =

تـدريجيـاً من « تهـديم » سلطة الـدولـة المـركــزة تلك كـما « يتم تهـديم » جدار حجـراً حجراً (إن جـوهر الإصـلاحية والمـراجعة يقوم على هذا الوهـم الذي رفضه لينين وروزا لوكسمبـورغ بالقـوة ذاتها[٢٨]) . إلا أنه ، ما أن يتم الاعتراف بـالاستيلاء عـلى السلطة هـدفـاً عـلى المـدى القصـير او المتـوسط حتى تنـطرح مسـألـة أداة الاستلام الثوري للسلطة بصورة ملحة . هنـا ومن جديـد لم تفهم روزا لـوكسمبورغ **مـا هو حـاسم** في الاستخدام الجـدلي الصـرف من جانب لينين للمفهـوم « اليعقوبي المـرتبط دون انفصام بتنـظيم البـروليتاريـا الواعيـة » . إن ما كـان يريـد لينين وصفـه عبر هـذا

= الخاصة للبروليتاريا في اطار دولة ما ، تتمتع في كل مكان بالاتجاه الطبيعي نحو لحم كل المجموعة القومية والدينية والمهنية داخل الطبقة العاملة ضمن حزب واحـد موحـد » (روزا لوكسبمـورغ : organisation fragen... op.cit, ص ٧٢ .

(٢٨) أنظر الاطروحة التي عرضها اندري غورز والتي تقول إنه لا يمكن بناء حزب جديد إلا من « اسفل الى أعلى » ، منذ أن « تغطي كل البلاد تقريباً » شبكة لجان القاعدة ومجموعات المصنع (لا ترادیونیونیون ولا بلاشفة » في « الأزمنة الحديثة » تشرين اول ١٩٦٩) . لم يفهم غورز ان ازمة الدولة البورجوازية تتجه انطلاقاً من نقطة معينة نحو امتحان قوة حاسم . إذا لم تحدث مركزة المجمـوعات الثورية لا يؤدي ذلك إلا إلى تسهيل استعادة الرقابة على الحركة من قبل البيرقراطيين الاصلاحيين مما يقود إلى الانفجار السريع للطليعة التي في طور التكوين ـ كما حدث ذلك وبصورة جد سريعة في ايطاليا في الوقت الذي كان يكتب فيه غورز بالضبط مقاله .

المفهوم ، ليس مجموعة متآمرين بلانكيين ، بل طليعة منخرطة في الإنجاز الذي لا ينقطع للبرنامج الثوري ، لا تسمح لنفسها بالتحول عن التركيز على تلك المهام بفعل المد والجزر المحتوم للحركات الجماهيرية . إلا أنه من أجل إعطاء روزا لوكسمبورغ حقها ينبغي أن نضيف أولاً أنها كانت تتصدى لهذه المسألة ضمن منظور تاريخي خاص ـ ولم يكن بوسعها التصدي لها بطريقة أخرى ـ عنينا منظور المانيا عام ١٩٠٤ ، حيث لم تكن ثورة وشيكة الوقوع بادية للعيان . ثانياً ، أنها استخلصت منها الاستنتاجات الضرورية بالمعنى اللينيني منذ برزت حالية الثورة بصورة مباشرة ، في المانيا[٢٩] .

---

(٢٩) انظر مقال روزا لوكسمبورغ من أجل تأسيس الحزب الشيوعي الالماني : « المؤتمر الأول للحزب » : لقد تشكلت الطليعة الثورية للبروليتاريا الالمانية في حزب سياسي مستقل » (ص ٣٠١) « يتعلق الامر مذ ذاك باستبدال الاستعداد النفسي الثوري لدى كل فرد بتصميم ثوري لا يلين ، العفوي بالمنهجي » (ص ٣٠١) [الميثاق التأسيسي للحزب الشيوعي في المانيا ، فرنكفورت ١٩٦٩] .

انظر كذلك ص ٣٠١ المقتطف من الكراس الذي كتبته روزا لوكسمبورغ بعنوان « ماذا تريد عصبة سبارتاكوس ؟ » : « ليست عصبة سبارتاكوس حزباً يهدف إلى السيطرة على وبواسطة جمهور الشغيلة ، ليست عصبة سبارتاكوس إلا الجزء الأكثر تصميماً داخل البروليتاريا ، الذي يعين لدى كل خطوة للجمهور الواسع للطبقة العاملة ما هي مهامها التاريخية والذي يدافع عند كل طور خاص من الثورة الاشتراكية النهائية وفي كل مسألة قومية =

وقد ارتكب تروتسكي الشاب كذلك ، غلطة كبيرة في مناظرته العنيفة للينين عندما لامه على هذه « الاستبدالية » ، أي استبدال مبادرة الطبقة العاملة بمبادرة الحزب وحده[٣٠] . ولو انتزعنا جوهر هذا اللوم من اطاره التهجمي ، نجد هنا ايضاً فهماً مثالياً غير واف لتطور الوعي الطبقي للبروليتاريا : « ان تعاليم ماركس تقول ان مصالح البروليتاريا انما تحددها ظروف الحياة الموضوعية . وهذه المصالح هي من القوة بشكل لا يمكن تجنبها وهي في النهاية (!) تجبر البروليتاريا على ادخالها ضمن اطار وعيها ، أي على تحويل تحقيق المصالح « **الموضوعية** » الى مصلحة « **ذاتية** »[٣١] . اما اليوم فاننا نستطيع ان نرى بكل سهولة التفاؤل القدري الساذج الكامن في هذا التحليل غير

عن مصالح الثورة البروليتارية العالمية » .

نرى هنا اين تقع هذه النواة الاساسية للبلشفية التي لم تكن روزا لكسمبورغ قد فهمتها بعد عام ١٩٠٤ : في واقع ان « الجزء الأكثر تصمَيماً داخل البروليتاريا » ينبغي ان يتم تنظيمه خارج « الجماهير الواسعة » .

مما يؤكد مقولتنا بشكلٍ كامل انه حالما تبنت لوكسمبورغ مفهوم الحزب الطليعي ، اتهمها هي ايضاً الديموقراطيون الاشتراكيون (بل « يسار » الديموقراطيين الاشتراكيين) بانها تريد تطبيق « الدكتاتورية على البروليتاريا » .

(٣٠) ليون تروتسكي ، **مهامنا السياسية** ، (باريس ١٩٧٠) ص ١٢٣ ـ ١٢٩ .
(٣١) المصدر نفسه ، ص ١٢٥ .

الوافي . فالمصالح الفورية توضع هنا في مستوى المصالح التاريخية بالذات ، أي في حل خبايا الاسئلة الاكثر تعقيداً المتعلقة بالاستراتيجية والتكتيك السياسيين . ان الامل في ان تتمكن البروليتاريا « في النهاية » من ادراك مصالحها التاريخية ، يبدو سطحياً الى حد ما عندما يقارن بالمصائب التاريخية التي وقعت ، لأنه في غياب القيادة الثورية الكفوءة ، لم تكن البروليتاريا قادرة حتى على انجاز المهام الثورية الآنية العاجلة .

ويظهر هذا التفاؤل الساذج بشكل اكثر وضوحاً في النص التالي المأخوذ من المناظرة نفسها :

« ان الديموقراطي الاشتراكي الثوري لا يقتنع فقط بالنمو (!) الحتمي لحزب البروليتاريا السياسي ، بل كذلك بحتمية انتصار افكار الاشتراكية الثورية داخل هذا الحزب . ويكمن البرهان الاول لذلك في حقيقة ان تطور المجتمع البرجوازي ، يؤدي بالبروليتاريا تلقائياً الى تحديد او تعريف نفسها سياسياً . اما البرهان الثاني فيكمن في حقيقة ان الاتجاهات الموضوعية والمشاكل التكتيكية لمثل هذا التحديد ، تعبر عن نفسها بالشكل الاحسن والاكمل والاعمق في الاشتراكية الثورية اي الماركسية[٣٢] » .

---

(٣٢) المصدر نفسه ، ص ١٨٦ .

يوضح هـذا النص ان ما كـان ينادي بـه تروتسكي الشـاب في محـاجتـه ضـد لينـين انمـا هـو « التكتيـك القـديم المجـرب » والاعتقاد الساذج في « حتميـة التقدم » ، عـلى النحو الـذي اتبعه ببيل وكاوتسكي اللذان سيطرا على فكر الديمـوقراطيـة الاشتراكيـة الأممية منذ وفـاة ماركس حتى الحـرب العالميـة الاولى . اما مفهـوم لينـين للوعي الـطبقي فقـد كـان اغنى بمـا لا يقـارن ، كـان اكـثر تنـاقضية واكـثر جدليـة ، وبـالضبط لأنـه ارتكـز عـلى فهم عميق لحالية الثورة في الوقت الـراهن (ليس في احد الايـام في النهايـة ، بل في السنوات القادمة) .

ولكي يتم تلخيص التـطور التـاريخي لا بـد من ان نضيف انه في اعقاب تفجر الثورة الروسية في ١٩١٧ ، تبنى تـروتسكي ، بشكل كامل ، تحليل لينين لتكوّن الـوعي الطبقي البـروليتاري ، ومن ثم نـظرية لينـين في التنظيم ايضـاً . وظل تـروتسكي ، حتى وفـاته ، يـدافـع عنهـا بعنـاد ضـد كـل المشككـين والمفـرطـين في التشـاؤ م (الـذين ادعـوا انهم يكـادون يـرون فيهـا « جنـين » الستالينية) . ولهذا فقد كتب تروتسكي في آخر مخـطوطة لـه وهي مخطوطة لم يتممها :

« لقد كان لينـين احد العـوامل العمـلاقة التي سـاعدت في نضج البروليتاريا الـروسية في شبـاط او آذار سنة ١٩١٧ . ولكنـه لم يهبط من السـماء ، بل جسـد التقليد الثـوري للطبقة العـاملة ،

لأنـه لكي تجد شعـارات لينين طـريقها الى الجمـاهير ، كـان لا بد من وجـود كوادر ، حتى لـو كان عـددها ضئيـلاً في البدايـة ؛ كان لا بـد من وجود ثقـة الكوادر في القيـادة ، ثقة مبنيـة عـلى اسـاس خبرات الماضي بكاملها . ان الغاء هذه العـوامل من حسـاباتنـا ، يعني ببسـاطـة تجاهـل الثـورة الحيـة ، واستبـدالهـا بشيء غـير محسـوس ، هو « عـلاقـات القـوى » ، لأن تـطور الثـورة يتـألف بـالضبط من حقيقـة ان عـلاقـات القـوى لا تفتـأ تتغـير بشكـل متـواصل وسـريع تحت تـأثـير التغيـرات في وعي البـروليتـاريـا ، جذب الشرائح الرجعية باتجاه الشرائـح المتقدمـة ، وتعاظم ايمـان الطبقة بقـوتها الـذاتية . امـا المحرك الحيـوي لهذه العمليـة ، فهو الحزب ، تمامـا كما ان المحـرك الحيوي لآليـة (مكانيكيـة) الحزب هي القيادة[٣٣] » .

الطليعة الثورية والعمل الجماهيري العفوي

إنـه امـر خـاطىء وغـير مبـرر أن يـوصف عمـل لينـين كـ « بخس تقدير » منهجي لأهميـة الاعمال الجمـاهيريـة العفويـة (مقـارنـاً « بـاعتراف » روزا لـوكسمبورغ وتـروتسكي بها) . إذا

---

(٣٣) ليون تروتسكي ، « الطبقة والحزب والقيادة » ، الأممية الرابعـة ، مجلد ١ عدد ٧ (كانون الأول ، ١٩٤٠) ، ص ١٩٣ .

استثنينا بعض النصوص الجدالية التي لا يمكن فهمها إلا في سياقها .

كان لينين يحكم على الاضرابات الجماهيرية والأعمال المتفجرة عفوياً بالحماس ذاته الذي كان يحكم به عليها تروتسكي أو روزا لوكسمبورغ[٣٤] . وحدها البيرقراطية الستالينية زورت اللينينية باتجاه حذر متنام إزاء الحركات الجماهيرية العفوية ـ وهذا من السمات المميزة لكل بيرقراطية .

عندما تقول روزا لكسمبورغ أنه ليس بالامكان « أن نحدد مسبقاً » وفقاً لروزنامة زمنية ، اللحظة التي ستنفجر فيها ثورة بروليتارية ، فهي على حق تماماً وإن لينين كان لينضم إلى رأيها هذا . كان مقتنعاً مثلها أن النشاط الأولي للجماهير الذي تستحيل الثورة بدونه لا يخضع بصورة مرسومة لـ « تنظيم » أو « قيادة سلسلة » من ضباط الصف المنتظمين . كان لينين ، تماما كروزا لكسمبورغ ، يعترف بروح الإبداع وبالطاقة على المبادرة اللذين يُطورهما عمل جماهيري حقيقي وواسع . إن الفرق بين النظرية اللينينية في التنظيم ونظرية العفوية ، كما يسمونها ـ التي لا يمكن نسبتها إلى روزا لكسمبورغ إلا بتحفظ ـ لا يكمن بالتالي

---

(٣٤) كان يمكننا إيراد شواهد لا تحصى . انظر في هذا المجال : لينين ، الأعمال الكاملة ، موسكو ، المجلد ١٨ ص ٤٨٨ ـ ٤٩٥ ، ١٩١٣ ؛ المجلد ٢٣ ، ص ٢٦٢ ـ ٢٦٦ و ٢٧٢ ـ ٢٧٧ ، ١٩١٦ ـ ١٩١٧ ؛ الخ . . .

في تثمين مبادرة الجماهير بل في فهم حدودها . إن مبادرة الجماهير قادرة على تحقيق أشياء كثيرة ، لكنها عاجزة سواء عن أن تتصور هي بذاتها البرنامج الكلي لثورة اشتراكية إبان النضال بالذات ، أو عن الدفع باتجاه مركزة القوى التي هي وحدها تسمح بقلب سلطة دولة وجهاز قمعها معتمدة على التثمير الكلي لميزات « خطها الداخلي » . بتعابير أخرى : حدود عفوية الجماهير تبدو بالضبط في اللحظة التي يصبح فيها جلياً أن نجاح ثورة اشتراكية لا يمكن أن يرتجل ارتجالا .

فضلاً عن ذلك ، لا توجد عفوية « صرفة » إلا في كتب حكايات الحركة العمالية لكن ليس في تاريخها الحقيقي . ان ما يجب فهمه بـ « عفوية الجماهير » ، إنما هو الحركات التي لم يخطط لها مقام مركزي ما . لكن لا يمكن ان نفهم بـ « عفوية الجماهير » حركات تجري « دون تأثير سياسي خارجي » . ما أن نحك قليلاً اللون الأزرق للـ « حركات العفوية » المزعومة ، حتى نجد بقية محترمة من الطلاء الأحمر البراق : هنا مناضل من « مجموعة طليعية » فجر إضراباً « عفوياً » ، هنالك عضو قديم في تجمع « متياسر » آخر كان قادراً على الرد مباشرة فيما كان الجمهور الغفل ما يزال يتردد . في إحدى الحالات نجد ان العمل « العفوي » هو نتاج عمل طويل من المعارضة النقابية أو من مجموعة قاعدية ، وفي حالة أخرى أنه نتيجة اتصالات

نسجهـا بصبر منـذ زمن طويـل (وطويـلاً دون نجـاح) زمـلاء في العمـل في مـدينـة مجـاورة (أو مؤسسـة مجـاورة حيث « اليسـار » أقـوى . حتى في صراع الـطبقات ، لا تسقط القبـرات « بصـورة عفوية» مشوية تماماً من السماء. إن ما يميز إذن الأعمال «العفوية» عن «تدخل الطليعة» ليس بالتأكيـد أن كل المقـاتلين في الحالـة الأولى يمتلكون المستوى ذاته من الوعي بينما ترتفـع الطليعـة في الحالة الثانية فوق «الجماهير». كذلك لا يكمن الفرق في واقـع انه في «الأعمال العفوية» لا «تُحمل من الخارج» الشعـاراتُ إلى صفوف الشغيلة، فيما تتصرف طليعة منظمة إزاء المطالب الأولية للجمهور بصورة «نخبوية» و « تفرض » عليه برنامجها . لم يحدث يوماً عمل « عفوي » دون نشاط طليعة .

إن الفـرق بين الأعمـال « العفويـة » وتلك التي « تتـدخـل فيهـا طليعة ثـورية » يكمن بصـورة رئيسية ، إذا لم يكن حصـراً ، في هذا الواقع : أنه في الاعمـال « العفويـة » **يكون التـدخل غـير منظم ، مرتجـلاً ، متقطعـاً ، غير مخـطط له** (أكـان في مؤسسة ، أو في قـطاع محدد أو في مـدينة) بينـما يسمح وجـود منظمـة ثوريـة بتنسيق تـدخـل الـطليعـة في « النضـال الجمـاهيـري العفـوي » بـالتخطيط لـه ، بتوقيتـه بصورة واعيـة ، وبـإعـطائـه بـاستمـرار شكلاً . إن كل متـطلبات « المـركزيـة القصوى » اللينينيـة تقريبـاً ترجع إلى هذا ، وإلى هذا على وجه الحصر .

فقط القدريون السادرون في غيهم (بتعبير آخر حتميون آليون) يمكنهم ان يزعموا أن كل الأعمال الجماهيرية كانت محكومة بأن تتم في اليوم الذي تمت فيه وأنه في كل الحالات الأخرى التي لم تؤد إلى اعمال جماهيرية ، لم تكن هذه ممكنة الحصول . إن هذا الاستسلام القدري (وقد نشرته مدرسة كاوتسكي ـ باور) هو في الحقيقة كاريكاتور نظرية التنظيم اللينينية . وليس بالتأكيد صدفة أن يكون الكثيرون من اخصام اللينينية الذين يتكلمون كثيراً على « عفوية الجماهير » يدافعون عن هذه الحتمية الآلية المبتذلة ولا يريدون ان يفهموا إلى أي حد هي متناقضة مع « إعادة تقويم » لـ « عفوية الجماهير » .

إذا انطلقنا من الدورية الحتمية للأعمال الجماهيرية العفوية ـ منذ لحظة نضج التناقضات الاجتماعية ـ الاقتصادية إلى حد لا يعود يمكن معه لنمط الانتاج الرأسمالي الا ان يستثير ازمات ما قبل ثورية، يبقى مع ذلك غير قابل للجدل انه يستحيل تحديد وقتها بدقة لأن الحوادث والصراعات الجزئية والصدف تلعب دوراً مهماً . هذا هو السبب في أن طليعة ثورية ، قادرة في اللحظة الحاسمة أن تركز قواها على « الحلقة الضعيفة » يمكنها ان تكون اكثر فعالية بما لا يضاهى من المبادرات المجزأة للكثير من الشغيلة المتقدمين الذين تنقصهم

هـذه القدرة عـلى التركيـز[٣٥] . إن اكبر نضـالين عمـاليين حـدثا حتى الآن في اوروبـا الغـربيـة ـ أيـار ٦٨ الفـــرنسي وخـريف ٦٩ الايـطالي ـ قد أثبتـا وجهـة النـظر هـذه . الاثنـان بـدآ بنضـالات « عفوية » لم تهيئهـا النقابـات ولا الاحزاب الكبـرى الاشتراكيـة ـ الديمقراطيـة أو « الشيوعيـة » . في الحالتـين لعب دوراً مهماً شغيلة وطـلاب متجذرون بـالإضافـة إلى كادرات ثـوريـة كـانت تفسـح للجماهير الكادحة بأن تقوم بـ « تجـربة نمـوذجية » . وفي الحـالتين أيضاً ساهم في النضال ملايـين الأشخاص ، أي اكـثر مما إبـان أعظم النضالات الـطبقية لما بعد الحـرب العالميـة الاولى : عشرة ملايين مأجور بـالتمام في فـرنسا ، وحـوالى خمسة عشـر مليونـاً في إيطاليا .

في الحالتين كانت التطلعات تتخطى إلى حـد بعيد « النـزعة الاقتصادية » لاضـراب نقابي صـرف . برهن عـلى ذلك في فـرنسا احتـلالات المعـامـل ، وفي ايـطاليـا مـظاهـرات الشـوارع ورفـع مـطالب سياسيـة كما محـاولات التنظيم الـذاتي المستقـل في أمـاكن العمل، أي ازدواجية السلطة : انتخاب الـ delegati di riparto (بهذا المعنى كانت الـطليعة العمـالية الايـطالية أكـثر تقدمـاً بكثير

(٣٥) إن العجز عن التركيز «العفوي» للطليعة الثورية على المستوى القومي تجلى بوضوح قبل كل شيء إبان الأضراب العام في فرنسا عام ١٩٦٨ .

من الطليعة الفرنسية ؛ لقد استخلصت قبل غيرها الدروس التاريخية لأيار الفرنسي[٣٦] . لكن في الحالتين لم يمكن قلب جهاز الدولة البورجوازي ونمط الانتاج الرأسمالي ، أو حتى فقط استثارة تماثل الجماهير الواسعة مع أغراض النضال التي كان بإمكانها أن تسمح بهذا القلب على المدى القصير . نورد في هذا الصدد الصورة التي استعارها تروتسكي في « تاريخ الثورة الروسية » : كان البخار يتبدد لأنه لم يكن هناك أسطوانة تحصره عند النقطة الحاسمة[٣٧] . طبعاً إن القوة المحركة هي في النهاية قوة التعبئات والنضالات الطبقية وليس الاسطوانة بحد ذاتها . بدون هذا البخار ، ليست الاسطوانة اكثر من انبوب فارغ ، لكن بدون الاسطوانة ، حتى البخار الأكثر قوة يتبدد ولا يبلغ الهدف . ذلك هو جوهر نظرية التنظيم اللينينية .

---

(٣٦) لكن هنا أيضاً كانت مشاريع التنظيم الذاتي هذه عاجزة في غياب طليعة ثورية منظمة كان بوسعها ان تقوم بالاعداد الضروري ، ان تحيد بصورة مستديمة ، لا بل ان تحطم المركزة المحافظة للأجهزة النقابية ، وارباب العمل وجهاز الدولة .

(٣٧) ليون تروتسكي ، **تاريخ الثورة الروسية** (ان اربر، ١٩٥٧) ، ص ١٤ .

حالية نظرية التنظيم اللينينية على ضوء التجربة التاريخية

(١)

لم يترك لنا ماركس نظرية مكتملة عن تشكل الوعي الطبقي البروليتاري . للسبب ذاته ، لم يترك لنا نظرية مكتملة عن الحزب . ثمة في مؤلفاته شذرات لنظرية من هذا النوع ، لكنها تبدو غالباً كما لو كانت متناقضة ، لأنها تبرز تارة هذا وطوراً ذاك من وجوه تكون هذا الوعي الطبقي التي تغلب في التحليل الماركسي . تارة العنصر الذي يخلص الى الانضاج الذاتي للبروليتاريا على **المدى الطويل** - تبعاً للوضع البروليتاري بالذات ، اي تبعاً للموقع الذي تحتله البروليتاريا في سيرورة الإنتاج الرأسمالي ، وفي المجتمع البرجوازي عموماً . وطوراً العنصر الذي يبرز انعدام النضج الذاتي **المباشر** للبروليتاريا ذاتها - تبعاً لثقل البؤس والاستلاب والتخبل ولا سيما الخضوع لعبودية ايديولوجيا الطبقة المسيطرة ، تلك السلبيات التي تنجم عن الشرط البروليتاري ذاته .

إن للينين الفضل التاريخي في دمج هذه العناصر المتناثرة لصياغة نظرية متماسكة حول تكوّن الوعي الطبقي

البروليتاري ، نظرية تشكل قاعدة نظريته عن التنظيم . إن الكثير من التطورات الخاطئة إزاء هذه النظرية عن التنظيم ، والكثير من الدعاوى غير المبررة ، على النية ، المقامة ضد لينين طوال القرن العشرين ناجمة عن رفض فهم نقطة الانطلاق النظرية تلك .

طبعاً ، عندما يجري الكلام على نظرية لينينية في التنظيم ، ثمة نزعة الى الرجوع حصراً إلى كراس « ما العمل ؟ » وإرجاع أكثر من ربع قرن من النشاط الحثيث في حقل التنظيم الى المبادىء المذكورة في هذا الكراس دون غيرها . بقدر ما لا يُرى في لينين ماكيافللي منافق ، يخفي عن وعي قسماً من نواياه عندما يكون « الظرف غير مناسب » وبقدر ما يجري الاعتراف له بالحد الأدنى من الصدق والتماسك الايديولوجيين اللذين بدونهما يفقد نقاش أفكاره كل معناه ، فإن هذه المحاولة الاختزالية هي بالطبع دون أساس . ثمة في نتاج لينين ثبات في بعض الموضوعات الجوهرية التي نجدها معروضة بأوضح الصور وأكثرها إقناعاً في «ما العمل؟» . لكن كلما اغتنت تجربة لينين أكثر فأكثر ـ لا سيما تجربة النضالات الثورية للبروليتاريا الروسية عامي ١٩٠٥ ـ ١٩٠٦ وعام ١٩١٧ ، وإلى حد لا يمكن اغفاله تجربة الحركة العمالية الأممية إبان الحرب العالمية الأولى وغداتها ـ فإنه يدمج في نظريته حول التنظيم سلسلة من العناصر

الإضافية ، سوف نجدها مبلورة على الأخص في الكتابات عن إفلاس الاشتراكية ـ الديموقراطية بين سنة ١٩١٤ وسنة ١٩١٦ ، في « الدولة والثورة » وكتابات أساسية اخرى عام ١٩١٧ ، في وثائق المؤتمرات الأولى للأممية الشيوعية وفي « مرض اليسارية الطفولي » . إنّ مجمل هذه العناصر المجمعة حول الموضوعات الأساسية لكراس « ما العمل ؟ » والمصححة لها في بعض الوجوه ، تشكل النظرية اللينينية في هذا الميدان ، وليس لحظة من هذه النظرية ، محدودة في الزمان .

ثمة ملاحظة تمهيدية اخرى تخص محاولة العديد من النقاد دحض النظرية اللينينية عن التنظيم معتمدين على الممارسات البيروقراطية للاتحاد السوفياتي بعد لينين . . . انه خطأ منهجي واضح .

طبعاً إن وحدة النظرية والممارسة التي يطالب بها الماركسيون ـ والتي كان لينين ليضطلع بها من جهته قبل غيره ـ تسمح باستمرار بمواجهة النظريات بنتائجها العملية . لكنها تتطلب أن يقدم البرهان على أن هذه النتائج تنجم عن النظرية ، ـ وليس عن عوامل مختلفة ، لا بل نظريات معاكسة . إن إدانة كتاب في الجراحة لأن جرّاحاً فشل في عملية جراحية بعد أن تلقى دروسه على أساس هذا الكتاب ليست طريقة علمية جدية للغاية . ينبغي كذلك تقديم البرهان على ان ما سبب موت

المريض إنما هو تطبيق النظريات المعروضة في الكتاب ، لا واحد من آلاف العوامل المختلفة التي يمكن ان تؤثر على مجرى العملية الجراحية ، بدون علم المنظّر ، أو نتيجة لرفض واع لاتِّباع الدرس المتلقى .

أخيراً ، من الضروري تمييز ما يملك في النظرية اللينينية عن التنظيم قيمة شمولية ، أي ينطبق على مجمل عصر الأزمة العامة للرأسمالية ، وينتج هكذا عن مجمل الخصائص الأساسية للمجتمع البرجوازي ، للإنتاج الرأسمالي وللطبيعة الطبقية للبروليتاريا ، ـ وما ليس إلا عرضياً ، ناتجاً عن شروط نوعية خاصة بالزمان والمكان . نكتفي بمثل واحد : كم من المرار جرى الاستشهاد بالمقطع الوارد في « ما العمل ؟ » ضد انتخاب لجان الحزب ، ولصالح تعيينها من قبل المركز ، كبرهان على التصرفات « المعادية للديموقراطية » للغاية ، من جانب لينين ؟ جرى تناسي إضافة أن لينين يبرر هذه الطروحات **حصراً** بالشروط الصعبة للسرية التي كان يعيشها الحزب الاشتراكي ـ الديموقراطي العمالي الشاب في روسيا القيصرية ، وأن كراس « ما العمل ؟ » ينادي في **الوقت ذاته** بضرورة الانتخاب والعلنية الأوسعين لكل اللجان وكل مندوبي الحزب ، مذ يجري ضمان الحد الأدنى من الحريات الديموقراطية ، وأن طروحات المؤتمر الثاني للأممية الشيوعية تؤكد من جديد على مبدأ انتخاب كل

اللجان ، غير تاركة مجالاً للاستثناآت إلا بالنسبة لشروط السرية القصوى على وجه الحصر .

(٢)

تنطلق النظرية اللينينية حول تكون الوعي الطبقي البروليتاري من التمييز ، الجوهري بالنسبة للماركسية ، بين **الطبقة في ذاتها والطبقة لذاتها** ، الذي سبق وأرساه ماركس في « بؤس الفلسفة » . يتفرع عن هذا التمييز مفهوم الوجود الموضوعي للطبقات الاجتماعية ، بالاستقلال عن مستوى الوعي لديها ، ومفهوم النضال الطبقي الموضوعي ، بالاستقلال عن مستوى الفهم الذاتي للمصالح التارئ بة للطبقات المعنية . إن هذين المفهومين عن الطبقة الموضوعيد ، والنضال الطبقي الموضوعي ، لا غنى عنهما للتماسك الداخلي للمادية التاريخية ولفهم التحديد المشهور ، في البيان الشيوعي ، الذي يقول : « كل تاريخ البشرية هو تاريخ الصراع بين الطبقات » . بديهي ان عبيد العهد القديم وأقنان العصر الوسيط كان وعيهم لمصالحهم الطبقية التاريخية أقل بكثير مما هي الحال مع الشغيلة البريطانيين أو الأميركيين في أيامنا هذه . إن إنكار طابع الصراعات الطبقية على مجابهات كبرى بين الرأسمال والعمل ، على أعمال طبقية كبرى تقوم بها البروليتاريا ، كما على سبيل المثال الاضراب العام في ايطاليا بتاريخ ١٤ تموز ١٩٤٨ أو

الإضرابات العامة في بلجيكا عام ١٩٥٠ وعامي ١٩٦٠ ـ ١٩٦١ ، بحجة ان وعي البروليتاريين المنخرطين في تلك المعركة لم يكن على مستوى متطلبات التاريخ ، أو أن هؤلاء كانوا يقاتلون من أجل أهداف سياسية لا تخرج من ميدان الديموقراطية البرجوازية ، إنما هو دفن لمفهوم الطبقة الموضوعية والنضال الطبقي الموضوعي ، ووضع لنقطة استفهام على كل المادية التاريخية . لا يعود الوجود الاجتماعي هو الذي يحدّد الوعي ، بل الوعي ـ والوعي وحده ـ هو الذي يسمح بالحكم على حقيقة نضال اجتماعي يُشرك ملايين الأشخاص .

لكن كما أن النظرية اللينينية عن التنظيم ترفع دعوى التزوير ضد شطحات تلك النزعة الذاتية القصوية ، فهي تعارض بحزم الموضوعية التي ليست أقل ميكانيكية والتي ترى ، محتجة بأن الصراع الطبقي هو بالنسبة لماركس النتيجة المحتومة لوجود المجتمع الرأسمالي وللتناقضات التي تمزقه ، أن الوعي هو الانعكاس الآلي للوجود الاجتماعي ، وتمحو هكذا الخصوصية الأساسية للنضال الطبقي البروليتاري ، تلك التي تميزه عن كل نضال طبقي حدث في الماضي : عنينا واجب الطبقة العاملة في استبدال مجتمع واقتصاد تحكمهما قوانين عمياء أو موضوعية ببناء واع لمجتمع واقتصاد جديدين تديرهما قيادة واعية يضطلع بها منتجون متشاركون .

بما أنه لا يمكن لبناء الاشتراكية ان يكون النتيجة الآلية للنضال الطبقي داخل المجتمع البرجوازي أو لمجرد تحرير عناصر المجتمع الجديد القائمة داخل المجتمع القديم ، بل لتنظيم واع للمنتجين فإن مستوى وعي هؤلاء المنتجين سوف يحدد الى درجة لا يستهان بها حظوظ نجاح المشروع .

بتعابير أخرى : استنتج لينين من تمييز ماركس بين مفهوم الطبقة في ذاتها والطبقة لذاتها تمييز مفهوم **النضال الطبقي الابتدائي** ـ وهو النتيجة التلقائية المحتومة للتناقضات الطبقية التي يدخلها نمط الإنتاج الرأسمالي بذاته الى المجتمع البرجوازي ـ **والنضال الطبقي الثوري** ، الذي وحده يسمح بتحويل الأول الى هجمة ناجحة ضد الاقتصاد الرأسمالي والدولة البرجوازية والذي يتوقف نجاحه بصورة أساسية على مستوى وعي البروليتاريا وتنظيمها وقيادتها .

لا شك أن مأخذ « النزعة الإرادية » الموجه غالباً ضد لينين لا مبرر له ، لأن النضال الطبقي الثوري ، في نظريته ، لا ينفصل أبداً بصورة ميكانيكية عن النضال الطبقي الابتدائي . لا يمكن ان يكون إلا ناتج هذا الأخير ، في بعض الشروط التاريخية الموضوعية ، المحددة بوضوح . بعكس الشعبويين ، لم يؤمن لينين أبداً بأن مجرد « الإرادة الثورية » أو « التربية الثورية » يمكن أن تنتجا ثورة ظافرة في ظل القيصرية . لقد اهتم دائماً

بالاشارة على وجه الدقة إلى أن على تلك « الارادة » وهذه « التربية » أن تنطلقا من النضال الطبقي الابتدائي لطبقة اجتماعية محددة ، هي البروليتاريا ، التي منحها تطور الرأسمالية في روسيا قدرات في النضال والتنظيم لم تكن تمتلكها اي طبقة اجتماعية في روسيا ما قبل الرأسمالية . لم ينس كذلك أن يوضح أنه ، فقط ، ضمن شروط تاريخية محددة تماماً ـ شروط تسمح بانتاج أزمات ما قبل ثورية بصورة دورية بفعل التناقضات المراكمة داخل المجتمع الروسي في ظل القيصرية ـ كان يمكن للجهد من أجل تحويل النضال الطبقي الابتدائي الى نضال طبقي ثوري ان يعطي ثماره .

خارج هذه المقدمات التي تسمح دون غيرها بتفسير كيف يمكن للنضال الطبقي المألوف أن ينتج « طبقة في ذاتها »، ان ينتج وعياً طبقياً بروليتارياً ، لم يكن يمكن لعمل طليعة ثورية ان يلاقي النجاح . إنه لمفيد تفحص الأسس الاجتماعية ـ الاقتصادية لتلك المقدمات ، ضمن إطار المادية التاريخية . سوف نعود الى ذلك بعد قليل . لكن فليبق الآن في ذهننا الشيء التالي وحسب : إن ما يميز النظرية اللينينية حول التنظيم عن نظريات أخرى إوالية أو ارادية ، ليس كونها تنكر الروابط الواضحة بين النضال الطبقي الابتدائي والنضال الطبقي الثوري ، ولا كونها تنكر أن الأول يُشكل الشر ط المسبق للثاني (أن اتساعاً عظيماً

للأول لا يمكن إلا أن يسهل بزوغ الثاني) . إن ما يميزها هو كونها تنكر وجود علاقات آلية وتلقائية بين الأول والثاني ، وكونها تعتبر ان الثاني لن ينجم عن الأول إلا إذا انضافت إلى الشروط الموضوعية التي ينبغي أن تسبق بزوغه سلسلة من الشروط الذاتية التي ليست نتيجة طبيعية محتومة لها . هنا بالذات نقع على كل تعميق النظرية الماركسية حول تكون الوعي الطبقي البروليتاري الذي تمكن لينين من تقديمه عن طريق نظريته في التنظيم .

(٣)

إن المستوى الدقيق لوعي البروليتاريا ليس الناتج الآلي لموقعها من سيرورة الانتاج ولا الناتج الآلي لتجربتها (إذن لاتساع نضالاتها الماضية والحاضرة) . إنه ينجم عن مجموعة من العوامل الأكثر تعقيداً بكثير ، التي يسمح تفاعلها وحده بتفسير لماذا هذا المستوى هو على ما هو عليه في زمن محدد ومكان محدد .

إن النظرية اللينينية عن تكون الوعي الطبقي البروليتاري تفسر قبل كل شيء أن هذا التكون يمثل **سيرورة غير متساوية وغير متواصلة** . هذه السيرورة غير المتساوية وغير المتواصلة لتكون الوعي الطبقي البروليتاري هي أولاً انعكاس **السيرورة التاريخية غير المتساوية وغير المتواصلة لتكوّن البروليتاريا ذاتها** .

إن مجموع المأجورين ، كما يبدون في فترة معينة في بلد

معين ، لم يُقضَ عليهم في الفترة ذاتها وفي الظروف ذاتها بأن يبيعوا قوة عملهم . بعضهم عمال صناعيون ، أولاد عمال صناعيين منذ عدة أجيال . وغيرهم جرى اقتلاعهم حديثاً من قريتهم التي وُلدوا فيها ومن زراعة الأجداد . بعضهم تأثروا بالحياة والانضباط الجماعيين في المصنع الكبير ، وغيرهم تأثروا بروحية جمعيات الحرف السائدة في المنشأة الصغيرة والعمل شبه الحرفي . بعضهم موسومون بحضارة المراكز المدينية الكبرى حيث الحياة الجماعية خارج المصنع تشكل امتداداً طبيعياً للدوافع التضامنية المنبثقة عن العمل الصناعي بالذات . وآخرون يخضعون للتأثير المستلب المزدوج للوضع البروليتاري وللمسكن نصف الريفي المعزول والمُذَرِّر. هؤلاء تربوا منذ طفولتهم في منظمات عمالية . وأولئك خاضعون للتأثير الايديولوجي للطبقة البورجوازية الذي نقلته تنظيمات كهنوتية أو « محايدة » . إن تنوع وعي البروليتاريا ، في فترة معينة ، هو هكذا يتبع تفريعاً Stratification يعكس الأصول التاريخية وشروط الحياة المختلفة لشرائح بروليتارية متنوعة .

تنضاف إلى الجذور الموضوعية لتفريع البروليتاريا ذلك جذور ذاتية ليست أقل أهمية . لن يخضع كل عامل بالطريقة ذاتها والدرجة ذاتها لتأثير الطبقة المسيطرة الايديولوجي . إن اختلافات في التجربة والذكاء والمزاج والطبع سوف تستثير ردود

فعـل مختلفة لـدى أعضاء مختلفـين من طبقة اجتمـاعيـة واحـدة ، خاضعة لقوى الاستغلال والاضطهاد ذاتها . عاجلاً أو آجلاً سوف تنخرط الأكثريـة الساحقـة من الطبقـة في النضال ، ـ لكن لـواقع كون البعض يفعلون ذلك قبل غيرهم ، ويفهمـون بصورة أفضـل المـرمى العام لـذلك النضـال أهمية حـاسمة بـالطبـع على السلوك اليـومي لهؤلاء وأولئـك ـ لا سيـما خـارج فتـرات النضـالات الكبـرى . إذا كان للتفـريـع الاجتمـاعي للبـروليتـاريـا أسبـاب موضوعيـة ، فإن التفـريـع الـذاتي يؤدي ، في اتصـال بـه ، الى الطابع غـير المتواصـل لتطور الـوعي الطبقي . ينجم هـذا بدوره عن خصيصة أساسية للمجتمع الرأسمالي وللشرط البروليتـاري ينبغي التذكير بها في هذا الصدد .

تخضع الطبقة العاملة للاستغلال الرأسمالي ، لا تبعـاً لخيار ايـديولـوجي مسبق ، بل تبعـاً لالتزام اقتصـادي محتوم لا يمكن ان تتملص منه ، في شروط «عادية» . لا يمكنهـا التوقف عن العمـل على الدوام ، دون ان يقضى عليها بالمـوت جوعـاً (إن تعويضـات البـطالـة ، في البلدان الـرأسمـاليـة الجـديـدة ذات التشـريـع الاجتماعي « السخي » ، تنقطع دون شفقـة بعد فتـرة إذا توصلت السلطات البـورجـوازيـة الى خـلاصـة ان الشقي « لا يـرغب في العمل ») . يعني ذلك أنها عاجزة عن النضـال على الـدوام ، وأنه خـارج النضالات الثـورية التي تضـع عـلى جـدول الأعمـال قلب

النظام الرأسمالي ، **ينفذ كل نضال طبقي في ظل هذا النظام حتماً إلى « إعادة الطبقة جزئياً الى المنطق الفردي الخاص »**، ما أن تنتهي المعركة . فقط العناصر الأكثر وعياً ، الأكثر حمية ، الأكثر عناداً ، تقاوم نزعة العودة إلى « النضال من أجل الوجود »، الى « الحياة الخاصة » التي تنجم عن بنية المجتمع والاقتصاد الرأسمالي بالذات .

تنعكس كذلك تلك البنية الموضوعية ذاتها ببنية ذهنية ، ايديولوجية ، **بنزعة الى استبطان علاقات** الانتاج الرأسمالية **والقبول اليومي بها** . حتى العمال الأكثر « عصياناً » يشترون خبزاً ، يدفعون ايجارات وضرائب ، يعيدون هكذا كل يوم إنتاج علاقات السوق التي تشكل أساس نمط الإنتاج الرأسمالي ولا يفقهون شيئاً . لقد خاضوا على امتداد عشرات السنين نضالات طبقية شرسة ، بما فيها نضالات سياسية (كما نضالات الشارتيين البريطانيين)، بما فيها انتفاضات (كانتفاضة عمال ليون)، دون ان يفهموا مع ذلك أن الرأسمالية مستحيلة دون تعميم علاقات السوق ، دون تحويل قوة العمل إلى سلع ، ووسائل الانتاج إلى رأسمال .

لا غنى عن جهد إعلام وتكوين نظري لكشف كل أسرار الاستغلال الرأسمالي وألغازه . إن هذا الجهد ، من حيث تحديده ، لا يمكن ان يكون إلا فردياً (أو في أحسن الأحوال بهمة

مجموعات ضيقة من الأفراد) . لا يمكن ان يكون الحاصل المباشر للتجربة . والحال أن الجمهور العريض لا يتعلم الا بالتجربة . ما أن يصل تكوّن وعي البروليتاريا الطبقي إلى طوره الأعلى ، طور بلوَرة النظرية العلمية وهضمها ، حتى يصبح إذن حتماً سيرورة مفرَّدة (بفتح الراء) ومفرّدة (بكسر الراء) (إن هذا في كل حال هو إحدى الأواليات الأساسية التي يمكن ان يكسب بها العامل المستلب والمسلوبة إنسانيته فردية مستقلة . لكن هذه قصة أخرى) . تصبح للسبب ذاته سيرورة تفاضل داخل الطبقة العاملة .

(٤)

إن المفهوم اللينيني عن الوعي الطبقي البروليتاري ، مرفوعاً إلى أعلى مستواه ، يعتمد كذلك على الدور المستقل نسبياً للنظرية الماركسية في السيرورة التاريخية . إنه يستتبع ، بتعابير أخرى ، **استحالة بلوغ وعي إجمالي للوضع البروليتاري وشروط تخطيه - وعي إجمالي للرأسمالية والاشتراكية - على أساس تجريبي بحت ، اختباري ، براغمائي** .

إن تجربة الشغيلة ومجموعات قطاعية من الشغيلة هي بالضرورة تجربة تجزيئية ومجزأة للواقع الاجتماعي ، يحدها الأفق الدقيق الذي يدور فيه وجودهم : بضع مؤسسات ، بضعة

احياء ، بضع مدن . إن النضالات التي تنطلق من هذه التجربة المباشرة مطبوعة للسبب هذا بخاتم وعي مجزأ يعكس - حتى وهو يحاول الإنكار - العمل المجزأ الذي هو خاصة البروليتاريا ، ونتيجته الطبيعية المحتومة التي هي التشييء والاستلاب و «الوعي الزائف» .

إن الطابع الحرفي المحتوم لهذه النضالات يستتبع ان يستدعي الوعي الطبقي الابتدائي الناتج عن النضالات الطبقية الابتدائية وجوهاً عديدة تتناقض مع نضال طبقي بالمعنى العميق والتاريخي للكلمة . ذلك أن هذا الوعي المجزأ ينقل انقسامات داخل البروليتاريا ، تنتج عن شروط الانتاج الرأسمالي بالذات وتحاول البورجوازية أن تحافظ عليها مهما كان الثمن . لا تصبح البروليتاريا طبقة لذاتها - لا « تشكل في طبقة » وفقاً لصيغة ماركس - إلاّ بقدر ما تتراجع عوامل الانقسام القطاعي والحرفي والمحلي والاقليمي والقومي والعرقي هذه لصالح وعي توحيدي للمصالح المشتركة لكل البروليتاريين بالاستقلال عن خصوصيات المهنة ، والشغل ، والكفاءة والمسكن والعرق والدين والقومية .

لكن إذا كان نمط الانتاج الرأسمالي يسهل حتماً ، في طور من نموه ، انفجار نضالات توحيدية وعامة على مستوى الطبقة العاملة ، فإن تلك النضالات تحتاج الى الكثير من أجل

التوصل الى استبدال الوعي التجزيئي والمجزأ بوعي كلي شامل لكل التناقضات الرأسمالية وكل شروط انتصار الاشتراكية . بمعزل عن العوامل المذكورة أعلاه التي تعيق تكوّن وعي شامل كهذا ، ثمة واقع كون تلك النضالات المعممة ليست الا لحظات « دقيقة » من لحظات الوجود العمالي ، لا تحصل إلاّ مرة أو مرتين إبان حياة كل جيل عمالي (وحتى ولا مرة واحدة في حياة بعض الأجيال العمالية : ألمانيا بين **١٩٣٣** و **١٩٦٨** !) . ضمن هذه الشروط ، فإن الأصل التجريبي البحت لوعي جماهيري كهذا ، قائم حصراً على أساس ما عيش فعلياً ، يجعل العوامل التي تحدد الطابع التجزيئي للوعي العمالي أقوى بكثير جداً من العوامل التي تعمل في الاتجاه المعاكس .

إن إحدى الأفكار الأساسية في « ما العمل ؟ » التي تحتفظ بكل قيمتها الشاملة اليوم كما حين كتب هذا الكراس هي أن البروليتاريا لا تستطيع بلوغ وعي كلي للواقع الرأسمالي - لواقعها الخاص بها - إلاّ عبر **ممارسة اجتماعية شمولية** أي عبر ممارسة سياسية . وبصورة ادق : انه لا يبلغ هذا الوعي الطبقي المرتفع به الى أسمى تعابيره إلاّ تلك الأقلية من الطبقة العاملة المستعدة لمتابعة **نشاط سياسي متواصل** والقادرة على ذلك ، حتى في فترات تراجع الحركة الجماهيرية ، حتى في مراحل « إعادة أكثرية

الشغيلة الى المنطق الفردي الخاص، حتى في مراحل صعود تأثير الايديولوجية البورجوازية والبورجوازية الصغيرة داخل الطبقة العاملة. هذا هو الأساس المادي لضرورة حزب الطليعة التي نادى بها لينين .

إن الطريقة التي يمنح بها لينين ، عن وعي ، قيمة خاصة لتلك **الممارسة السياسية** ، التي تثير على الدوام **كل** وجوه الواقع الرأسمالي ، **والمعاكسة للممارسة التريديونيونية** « ذات النزعة الاقتصادية » التي تكتفي بتحريض الشغيلة ضد الاستغلال والاضطهاد المباشرين ، اللذين يتعرضون لهما في المؤسسة التي يعملون فيها ، في الحي ، في المدينة (وفي الحالة القصوى : المنطقة ، البلاد) هي في أساس الكثير من سوء الفهم والتأويلات سيئة النية . إن الأسس النظرية لهذا التصور هي مع ذلك واضحة للعيان . إن ما ينكره لينين (وما انكره قبله ماركس وانجلز ، خلا ربما في بعض الجمل من كتابات الشباب ، المعزولة عموماً عن سياقها) هو ان المراكمة التدريجية والمتقطعة للتجربة المباشرة تؤدي « في نهاية المطاف » إلى إعاده إنتاج تحليل نظري ، كان وحده جهد خاص قد تمكن من إنتاجه في البدء (طبعاً في سياق تاريخي يحدده الوجود المسبق للمجتمع البورجوازي وللنضال الطبقي البروليتاري) . إن مئة إضراب من أجل مطالب مباشرة ، لن تؤدي بالضرورة الى وعي طبقي شامل، اشتراكي، حتى ولو خيضت باستبسال ليس له نظير.

يكفي دراسة تجربة النضالات الطبقية في بريطانيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وتجربة النضالات الطبقية في الولايات المتحدة في الفترة ما بين ١٩٤٠ ـ ١٩٧٠ ، لملاحظة ذلك مباشرة .

فقط **نشاط** يتخطى النضالات «الاقتصادية» يمكن ان يؤدي في النهاية إلى **وعي** يتخطى وعي التريديونيونية . يمكن ان نقبل بصعوبة مقدمات الجدل المادي ، النظرية الماركسية في المعرفة ، وإنكار صحة أطروحة لينين هذه في الوقت ذاته . إن ضرورة حزب عمالي طليعي تنجم إذن عن ضرورة خوض نشاط من هذا النوع على الدوام وعن استحالة أن يخوضها الجمهور العمالي بمجمله بصورة متواصلة في ظل النظام الرأسمالي ، تبعاً لتفريعه الموضوعي الخاص به وللمعيقات الذاتية القوية التي تمنع مراكمة ثابتة ، تدريجية ومتواصلة للوعي الطبقي في داخله .

إن حزب الطليعة يعمل هكذا موضوعياً **كالذاكرة الجماعية للطبقة العاملة** ، تلك التي تمنع أن تضيع المعارف المراكمة خلال مراحل النضالات المعممة في المراحل التالية الحتمية لتراجع تلك النضالات ، تلك التي تضمن تواصل **مراكمة الوعي ضمن شروط عدم تواصل النشاط السياسي للجماهير** .

(٥)

هكذا فإن مفهوم الحزب الطليعي يقودنا من جديد الى مفهوم دورية النضالات الطبقية المعممة ، الطابع الدوري للانفجارات العمالية الكبرى . نكتشف هكذا أساساً مادياً إضافياً للنظرية اللينينية في التنظيم . ذلك ان المنظمة المنفصلة للطليعة العمالية هي رهن المهام التي ينبغي إنجازها . إنها أداة عمل لبلوغ هذه النهاية المحددة : تحويل الانفجارات العمالية المعممة الى هجمات ناجحة ضد الاقتصاد الرأسمالي والدولة البورجوازية ، قلب النظام الرأسمالي بنجاح واستبداله بدولة عمالية ـ بديكتاتورية البروليتاريا ـ تباشر بنجاح بناء مجتمع اشتراكي .

إن منظمة الطليعة ، بصورة منفصلة عن الجمهور ، ليست النموذج الوحيد الممكن للتنظيم العمالي . إنها نتيجة رئاية تاريخية محددة : رئاية حتمية انفجارات ثورية على المدى المتوسط او البعيد ، لن تتحول الى ثورات ظافرة إلا بفضل نشاط الطليعة المنظمة . خارجاً عن **حالية الثورة هذه** ، لا يتبرر التنظيم المنفصل للطليعة إلا تبعاً لدوافع إيديولوجية صرفة ، يمكن أن تنحط الى عصبوية . عندما تكون النضالات المتوقعة الوحيدة نضالات جزئية ، فإن التراكم التدريجي للتجارب يبقى وحده ممكناً بالنسبة لجماهير عريضة ، وإن الدور الوسيط الوحيد الذي

يمكن للطليعة أن تلعبه يصبح دور نقل المعارف عبر الدعاية والتربية ـ دوراً لا يبرر تنظيماً منفصلاً ، ويتحقق داخل منظمات جماهيرية ، شريطة ان تحترم هذه حداً أدنى من الديموقراطية الداخلية .

ينبغي الإشارة في هذا الصدد الى أن لينين لم تكن لديه رؤ ية دقيقة لحالية الثورة ، قبل عام ١٩١٤ ، إلا بالنسبة لروسيا وحدها (وبعض البلدان الأخرى في أوروبا الشرقية) . تبعاً لهذه الرثاية ، امتنع عن المناداة بالمنظمة المنفصلة للطليعة بالنسبة للأحزاب الاشتراكية ـ الديموقراطية الجماهيرية قبل الرابع من آب ١٩١٤ . إكتفى بتشجيع تنسيق رخو بين تيارات يسارية شتى داخل الأممية الثانية ، لا سيما بمناسبة النقاشات التي دارت فيما يخص السلوك الذي يجب تبنيه حيال الحرب الامبريالية التي كانت تبدو على الأبواب . وهو لم يمد مبدأ التنظيم المنفصل للطليعة إلى مجمل الكرة الأرضية ولم يعلن ضرورة خلق الأممية الشيوعية ، إلّا حين أقنعه انفجار تلك الحرب بأن النظام الرأسمالي العالمي انتقل إلى طور أزمة عامة تاريخي يضع ثورات عديدة على جدول الأعمال في عدد كبير من البلدان .

إن الطابع الدوري لانفجارات نضالات شاملة كبرى للبروليتاريا ، ثورية كامنة ، يتفرع عن تعقيد الظروف الضرورية لزعزعة المجتمع البورجوازي عميقاً ودفع الشغيلة لتخطي مرحلة

النضالات من أجل المطالب المباشرة . لا تجتمع مجمل العوامل الضرورية إلّا استثنائياً ، سواء كانت العوامل الموضوعية (أزمة عميقة في علاقات الإنتاج الرأسمالية) أو العوامل الذاتية (انعدام الوحدة والشلل المتناميين للطبقات المسيطرة ؛ وهن جهاز القمع ، السخط المتنامي للجماهير الكادحة وقد بلغ مستوى غضب مكبوت ؛ شعور متعاظم بأن أسباب السخط لا يمكن ان تجد علاجها عن طريق الاصلاحات التدريجية ووسائل تصحيح « شرعية » متنوعة بل عن طريق عمل مباشر ؛ وثقة متعاظمة لدى الجماهير بقوتها الخاصة بها ، أي بقدرتها على تفجير عمل كهذا ، الخ . .) . بديهي أنه نظراً للاتجاهات العميقة لاستبطان العلاقات الرأسمالية ولإعادة جمهور من العمال الى المنطق الفردي الخاص غداة نضالات جزئية ، وهي اتجاهات ملازمة لنمط الانتاج الرأسمالي بالذات ، فإن المصادفة التي تجعل الوضع ناضجاً للانفجارات الثورية او الثورية الكامنة ، لا يمكن أن تكون إلّا استثنائية . للأسباب ذاتها ـ التي يضاف اليها في هذه الحالة وزن الهزيمة والشكوكية التي تولدها ـ لا يمكن لانفجار فاشل لم يحقق هدفه ان يعقبه على المدى القصير موجة صاعدة اخرى من النضالات المعممة ، لا بل سيعقبه انحدار في قتالية الجماهير الى ان تفجر مجموعة جديدة من الظروف الملائمة صعوداً جديداً . نتكلم هنا على « انفجارات »، ليس بمعنى أحداث معزولة ، بل بمعنى مراحل نضالات طبقية متجذرة

ومتعممة تدريجياً ، بالتضاد مع مراحل نضالات متفرقة ، محصورة وحول أهداف مباشرة وحسب (لا يمكننا ان نعالج هنا الصلات التي توجد بين الدورة الاقتصادية ودورة النضالات الطبقية ، لكننا سنشير فقط عابرين الى أن هذه الصلات ليست صلات علاقة ميكانيكية وسببية مباشرة) . .

إن الدور الذي على تنظيم الطليعة أن يلعبه حيال انفجارات دورية لنضالات معممة ينبغي أن يجري تفحصه في آن معاً بالنسبة للمراحل الاعدادية للنضالات الثورية الكامنة ولمراحل النضالات المعممة بحصر المعنى . يتعلق الأمر بمظهر مزدوج للعلاقة الجدلية « طليعة / جماهير » التي ينبغي إيضاحها . لكن طبيعة الثورة الاشتراكية البورجوازية تستتبع ضرورة عمل تركيزي واع لنضالات مبعثرة وإن كانت ذات اتساع جبار . إذا كان يمكن للمجتمع البورجوازي فعلياً ان يبدأ بالتفكك في الأطراف ، في مراحل أزمة ثورية حادة فإن هذا التفكك لا يمكن ان يصل اطلاقاً الى حل آلي للدولة البورجوازية . إن هذه ينبغي ان يجري تدميرها بوعي . فإذا لم يجر إنجاز عملية التدمير تلك ، يمكن ان يجري الشروع بسيرورة مضادة للثورة وبنجاح على يد قوى محدودة عددياً ، تقف في وجه جماهير جد وافرة . ان الدور الذي لعبته بقايا من الجيش الامبراطوري خلال الأسابيع الحاسمة من نوفمبر ١٩١٨ ـ مارس ١٩١٩ في ألمانيا ، هو أفضل دليل على ذلك ، وقد كان له نتائج تاريخية من أكثرها مأساوية .

(٦)

إن الرابط بين الطليعة والجماهير غير الثورية هو قبل كل شيء رابط وساطة تربوي . لا تعمل منظمة الطليعة فقط كذاكرة جماعية للطبقة ، بل تجتهد باستمرار في ايصال المعارف المراكمة بفضل النضالات والتجارب الماضية الى أكبر عدد ممكن من البروليتاريين .

عندما نتكلم على سيرورة تربوية ، لا ننسى بالطبع الطابع الجدلي لهذه السيرورة التي ليس فيها حقيقة جاهزة تنقل بصورة سلبية الى جمهور يُفترَض أنه جاهل ، بل تمثل تجارب ، مداً وجزراً مستمرين لانطباعات وأفكار ، بين الجمهور الأقل تسييساً والطليعة المنظمة . تتخطى الطليعة نهائياً خطر التحول الى تنظيم عصبوي أو «دكان» ، فقط عندما يجري تمكين هذا المد في **الاتجاهين** ، تلعب حقاً عند ذاك دور الذاكرة والمراكمة لتجارب جماعية **لكل الطبقة** .

إن الوساطة بين البرنامج ، الذي يلخص كل دروس النضالات الماضية وتعميمها النظري ، والجمهور الذي تبقى اهتماماته متمحورة حول أهداف مباشرة ، لا يمكن أن تحدث بالاستناد حصراً إلى تربية أدبية ـ وإن كان لينين أشار بحق الى أن ما يفصل الثوري عن الاصلاحي أو الوسطي هو كون الثوري يتابع الدعاية الثورية وإعداد الثورة ذاتها في المراحل غير

الثورية . تشترط تلك الوساطة كذلك شكلاً نوعياً خاصاً من العمل . إن «الخطة الاستراتيجية الكبرى» التي وضعها لينين في « ما العمل ؟ » والتي تقوم على تحويل حزب الطليعة الى ملتقى ومحرض لكل حركات الاحتجاج والتمرد ضد النظام القائم التي ليست رجعية موضوعياً ، قام فيما بعد بتمديدها باتجاه مفهوم المطالب الانتقالية الذي استعاده تروتسكي في برنامجه الانتقالي لعام ١٩٣٨ .

تستتبع استراتيجية المطالب الانتقالية وضع مطالب ، فيما تنطلق من اهتمامات الجماهير المباشرة ، لا يمكن تحقيقها واستيعابها في إطار النظام الرأسمالي . عندما تصبح دوافع أعمال معممة للطبقة العاملة تتجه إذن الى تحطيم إطارات الاقتصاد الرأسمالي والدولة البورجوازية . إذا طرحت الجماهير على ذاتها مباشرة أهدافاً كهذه لأعمالها ، وفقط في هكذا حالة ، يمكن لتلك الأعمال أن يمتصها النظام بصعوبة ، عن طريق إصلاحات . والحال ان الجماهير لا تطرح على نفسها أهدافاً كتلك الأهداف إبان إضراب عام إذا لم يتم إعدادها مسبقاً وبصورة منهجية ، سواء بالدعاية أو بـ «أعمال نموذجية» لذلك وبتكوين إطارات عمالية داخلها تجسد كل سيرورة الوساطة تلك وتنقلها يومياً الى رفاقها في العمل .

إنه من قبيل الايمان بالمعجزة افتراض الجمهور قادراً على

ان يجد غريزياً أثناء انفجار ثوري كبير المطالب الضرورية لإنجاح الثورة ، وقادراً على أن يجد الاستعراض ذا الألف مناورة ومناورة اصلاحية التي افسحت المجال أمام خنق كل الانفجارات الثورية في أوروبا الغربية ، رغم موازين القوى الملائمة جداً في حينها للثورة .

إن مركزة الحزب التي أصر عليها لينين بتلك القوة في الجدال الذي تمحور حول « ما العمل ؟ » هي قبل كل شيء مركزة سياسية ، تكمن في فهم واقع ان الجمهور العمالي لن يبلغ الوعي الطبقي عند مستواه الأرفع إلّا شرط تخطي الأفق الضيق للتجارب الناجمة عن نضالات جزئية أو ، بتعابير اخرى ، شريطة **مركزة تجاربه** . إن الوجه التنظيمي الصرف لهذه المركزة هو ثانوي في استدلال لينين ، وهو متأثر الى حد بعيد كذلك بشروط اللاشرعية النوعية الخاصة التي بنيت ضمنها الاشتراكية ـ الديموقراطية الروسية .

إن ضعف محاجة روزا لكسمبورغ ضد لينين ناجم عن كونها تركز نيرانها على الوجه التنظيمي للمركزة اللينينية ، متجاهلة الى حد بعيد وجهها السياسي . إنها مضطرة ، فيما تقوم بذلك ، الى الايحاء بنظرية تكوُّن للوعي الطبقي البروليتاري مختلفة عن نظرية لينين ، أكثر تبسيطية بكثير وأكثر تفاؤلاً بكثير

في الـوقت ذاته ، تعتبـر ان هذا الـوعي الطبقي لا يمكن ان يكـون إلّا نتيجـة للنضال وان هـذا النضـال كـاف لضمـان تكـوّنـه . إن التجربة التاريخية ، ولا سيـما تجربـة الثورة الألمـانية ، تكـذب هذه الاطـروحة . حتى النضـالات الأكثر اتسـاعاً ، الأكـثر صخبـاً ، والأكثر طولاً (فلنفكر بفترة الاضطراب والنضالات الجمـاهيريـة غـير المنقطعـة تقريبـاً بين ١٩١٨ و ١٩٢٣) لم تكن كـافية لتضمن بذاتها مستوى وعي مرتفع كفاية للجماهير العمالية الألمانيـة بحيث يسمـح لها بـإنجاز ثـورة ظافـرة . بمـا ان تلك النضـالات محكـوم عليها بالانحدار الدوري ، فإن نظرية تـرى في تكوّن ذلـك الوعي مجـرد نتيجـة لتجـربـة نضـال غـير منقـطع ، دون دور مـراكم للتجارب ، ممركز لها ، وذاكرة جماعية للحزب الـطليعي ، تحكم على هذا التكون بأن يكرّر عمل سيزيف المأساوي .

ينبغي أن نضيف ، لإحقـاق حق روزا لكسمبـورغ ، أنـه منـذ عام ١٩١٤ ، ولا سيـما منذ انفجـار الثورة الألمـانية ، فهمت تماماً أن تفـاضل البـروليتاريـا الايـديـولـوجي لا يمكن تخـطيـه عن طـريق اتساع النضـالات بالـذات . لـذا نـادت بـالتنـظيم المنفصـل للطليعة العمـاليـة ، وهـو مفهـوم أدخلتـه في كتـابـاتهـا البرنامجية من مثل « ماذا تريـد عصبة سبـارتاكـوس ؟ » . يمكن ان نقـول إذن انها أصبحت في هـذا الصـدد لينينيـة أيضـاً ، في نهايـة حياتها .

(٧)

عندما نتفحص العلاقات « طليعة / جماهير » في الفترة الثورية ، يتغير المشهد ، وتبدو ثغرات نقاشات ١٩٠٢ ـ ١٩٠٣ بوضوح . بصدد تلك الثغرات على وجه الخصوص ، أدخل لينين تصحيحات مهمة على نظريته في التنظيم ، بعد عام ١٩٠٥ ، بعد آب ١٩١٤ ، وخصوصاً عام ١٩١٧ .

لقد برهنت التجربة التاريخية في الواقع أن وجود حزب اشتراكي ـ ديموقراطي منظم (إذ استعدنا مصطلح لينين لسنتي ١٩٠٢ ـ ١٩٠٣) ليس ضمانا للدور الموضوعي الذي سيلعبه في الأزمة الثورية . لقد قدم لنا التاريخ مثل أحزاب عدة كانت أعلنت طيلة سنوات قناعاتها الماركسية ، بينما ليس فقط لم تحاول ، إبان أزمة ثورية ، أن تقود هذه حتى استيلاء البروليتاريا على السلطة ، بل حاولت حتى ان تكبح بكل الوسائل الحماس الثوري للبروليتاريا تلك بالذات ، لا بل أخذت مبادرة تنظيم انتصار الثورة المضادة بصورة واعية . إن سلوك الاشتراكية ـ الديموقراطية أثناء الأزمة الثورية بين ١٩١٨ ـ ١٩١٩ هو المثال الأكثر نموذجية على ذلك ـ لكن ليس الوحيد . إن وصول هتلر إلى السلطة ليس إلّا النتيجة النهائية لخنق الثورة الألمانية ، وهو خنق كانت مسؤولية أمثال نوسكي وإيبرت وشيدمان التاريخية فيه مسؤولية ساحقة .

كان تروتسكي وروزا لكسمبورغ قد توقعا ذلك الاحتمال قبل لينين ، ومنذ سنوات ١٩٠٣ ـ ١٩٠٦ . لقد فهما ، بتعابير أخرى ، ان الجماهير العمالية ذاتها التي كانت ، ضمن شروط « انتظام » عمل الرأسمالية ، واقعة بشدة تحت تأثير الايديولوجيا البورجوازية والبورجوازية الصغيرة ، يمكنها في أوقات الأزمة الثورية ان تبرهن على مبادرة ، إنطلاق ثوري ، وقتالية تتخطى إلى حد بعيد تلك التي يتميز بها مناضلون تثقفوا طيلة سنوات بالنظرية الماركسية .

عندما ندقق في حساب تاريخ النضالات الطبقية منذ عام ١٩١٤ نجد أنفسنا مجدداً أمام هذا الدرس ، لا مرة أو اثنتين ، بل عشرات المرات . إن تعداد كل لائحة الانفجارات الثورية التي تخطى فيها الأحزاب العمالية نشاطُ الجماهير الثوري ، إنما يعني وضع جدول بكل الأزمات الثورية التي تتابعت عملياً في البلدان الامبريالية ـ وبالكثير من الأزمات في البلدان نصف المستعمرة كما في البلدان المستعمرة أيضاً .

هل يعني ذلك أن التاريخ برهن على أن المبادرة العفوية للجماهير (بما فيها الجماهير غير المنظمة) هي شرط كاف لانتصارات ثورية وأنه يكفي تصفية « الكوابح المنظمة » من أجل ان نتمكن من ضمان سقوط الرأسمالية ؟ كلا اطلاقاً . ذلك أن الموازنة التاريخية مزدوجة في هذا الصدد . فمن جهة ،

أثبتت الجماهير في العديد من المرار أنها « اكثر ثورية » من الأحزاب . لكن هذه الجماهير ذاتها أثبتت كذلك انها عاجزة عن ان تضمن بذاتها قلب الرأسمالية .

في غياب طليعة منظمة تنتزع السيطرة السياسية داخل تلك الجماهير وتركز طاقة هذه الأخيرة على أهداف محددة ـ تدمير جهاز الدولة البورجوازية ، الاستيلاء على وسائل الانتاج وتنظيمها وفقاً لنمط مشرَّك ، بناء سلطة جديدة ـ فإن هجماتها الأكثر شجاعة وحتى انتصاراتها الأكثر جرأة ، تبوء بالفشل . لقد قدمت التجربة الاسبانية لشهر تموز **١٩٣٦** المثل الأكثر مأساوية والأكثر إقناعاً في هذا الصدد .

نستخلص بالتالي سلسلة من الخلاصات من هذه الموازنة التاريخية التي تسمح بإيضاح النظرية اللينينية في التنظيم ، ـ إيضاح أنجزه لينين بذاته خلال الفترة ما بين **١٩١٤** ـ **١٩٢١** .

إنه واضح قبل كل شيء أن الديالكتيك « جماهير/ احزاب » يتعقد ويتوسع على ضوء الرابع من آب **١٩١٤** . يصبح « جماهير ـ أحزاباً لا تتبع خطاً ثورياً ـ أحزاباً ثورية » . لم يعد وجود أحزاب ضماناً ضد امتصاص الايديولوجيا البورجوازية الصغيرة والبورجوازية للطبقة العاملة . على العكس ، يمكن أن يصبح ذلك الوجود محرك ذلك الامتصاص

وعربته ، كما كانت الحال بالنسبة للاشتراكية ـ الديمقراطية في البدء ، ثم بالنسبة لسلسلة من الأحزاب الشيوعية الجماهيرية (في فرنسا ، ايطاليا ، اليونان ، الخ . . .) فيما بعد . لم يعد يتعلق الأمر بمعارضة بسيطة وميكانيكية للـ «عفوية» بـ «التنظيم» ، بل بالنظر بناء الى أي الشروط النظرية والعملية يرفع التنظيم وعي البروليتاريا الطبقي ، يحرض عداءها حيال المجتمع البورجوازي بمجمله ، يُعِدُّ تدخلها الكثيف في الأزمات الثورية ، باتجاه تعميقها وتعميمها ، ويثقف مناضليه الخاصين به (الطليعة) باتجاه تدخل في الأزمات الموجهة نحو تحويلها الى ثورات اشتراكية ظافرة .

واضح أن اتساع نشاط الجماهير ، إبان أزمات ثورية ، لا يسمح بحشر السيرورة التاريخية في العلاقة المتبادلة الوحيدة « أحزاب ـ جماهير غير منظمة » . إن أي أزمة ثورية في بلد مصنع حتى بصورة نصفية أدّت دائماً تقريباً الى خلق **أشكال تنظيم ذاتي للجماهير** (سوفياتات ، مجالس عمالية)، اجنة السلطة البروليتارية القادمة وأدوات مباشرة لازدواجية سلطة فعلية . إن الوجه الثوري العميق لأجهزة التنظيم الذاتي والحكم الذاتي للجماهير تلك ، ناتج عن كونها تطول بالتحديد **مجمل** البروليتاريا والمستغلين ، بما فيهم هذا القسم من بينهم الذي يبقى غير منظم أو غير نشط اثناء الفترات «الهادئة» أو أثناء نضالات طبقية جزئية فقط .

لقد أدرك لينين الأهمية الأساسية لظاهرة السوفياتات متأخراً قليلاً عن تروتسكي الذي كان يرى فيها منذ عام ١٩٠٦ شكل التنظيم العام للثورة الروسية الظافرة المقبلة ، وشكل التنظيم العالمي للثورات البروليتارية . إلّا أنه فهمها عميقاً وليس فقط بصورة «انتهازية» وفي الفترات الثورية وحسب كما يأخذ عليه نقاد معاصرون معادون . ولقد فهم لينين أفضل من تروتسكي الديالكتيك الخاص «سوفياتات ـ حزب ثوري» الذي لم يستوعبه هذا الأخير بعمق إلّا عام ١٩١٧ : إذا كان يستحيل قيام ثورة في بلد مصنع دون تنظيم من النموذج السوفياتي ـ وهذا لا يستتبع بالطبع ان يكون المصطلح هو ذاته في كل مكان ـ لمجمل البروليتاريا ، فيستحيل كَذلك قيام ثورة ظافرة دون ان تكتسب الهيمنة السياسية داخل السوفياتات طليعة منظمة ، عبر عمل شرح ودعاية وتحريض لا يكل ، دون تأثيرها التنظيمي ، التركيزي ، على الطاقة الواسعة للجماهير التي تحررت إبان الأزمة الثورية .

إن هذا « الدور القيادي للحزب » لا يستتبع مفهوم الحزب الواحد (الذي يناقض على العكس مفهوم التنظيم السوفياتي . لأن هذا الأخير ، بمقدار ما ينبغي ان يكون تنظيم مجمل الشغيلة ، ينبغي حتماً أن يعكس تنوع مستويات الوعي والانتماء الايديولوجي والتنظيمي للبروليتاريا ذاتها ، أي انه

يستتبع التعددية الحتمية للأحزاب العمالية والاتجاهات العمالية)، ولا مفهوم هيمنة يتم كسبها بتدابير إدارية أو قمعية . إن تاريخ الثورة الروسية يثبت ذلك : كان استخدام تدابير من هذا النوع يتناسب دائماً بصورة معكوسة مع الهيمنة السياسية التي كان يتمتع بها الحزب البلشفي داخل البروليتاريا والجماهير الأكثر اتساعاً . طالما كانت تلك الهيمنة ـ المكتسبة عن طريق خطه السياسي وقدرته على اقناع الجماهير بذلك الخط ـ في متناوله ، لم يكن عليه ان يلجأ الى أي تدبير قمعي داخل الطبقة العاملة والتنظيم السوفياتي بالذات (اللهم إلّا تدابير دفاع ذاتي ضد اولئك الذين فجروا الكفاح المسلح ضد سلطة السوفياتات) . إن أي تدبير إداري وقمعي اضطر الى اتخاذه داخل الطبقة العاملة نتج عن انحدار مسبق لتأثيره السياسي الراجح داخل قطاعات محددة من تلك الطبقة .

يمكن البحث عن أسباب لذلك الانحدار في هذا أو ذاك الخطأ السياسي الذي اقترفه القادة البلاشفة ، في فترة محددة أو اخرى ؛ ان النقاش في هذا الصدد يدوم منذ نصف قرن ولن ينتهي في وقت قريب . لكن ايا يدرس تلك الحقبة التاريخية بحد أدنى من الحس الموضوعي يرى أن من البديهي ان لا تكون الأسباب الأساسية للانعزال التدريجي للبلاشفة داخل الجماهير عامي ١٩٢٠ ـ ١٩٢١ تكمن في هذا او ذاك الوجه الثانوي

للوضع أو لسياسة لينين ، بـل في شروط مـوضوعيـة كانت تؤدي بدورها الى سلبية متعاظمـة من جانب الجمـاهير . (من البـديهي ألّا نستخلص من ذلك الاستنتاج المنشفي بأنه كان من الأفضل « عـدم الاستيـلاء عـلى السلطة في بلد متخلف » ، أو الاستنتـاج التبـريري بـالنسبة للستـالينية الـذي يرى أن « الاشتـراكية لم تكن ممكنـة البناء في روسيـا إلّا بوسـائل بـربريـة ، إرهابيـة » . إن كـل شيء يتبع الدرجة النسبية لنشـاط الجماهـير . كان يمكن لسيـاسة صحيحـة للحزب ، بعـد سنة ١٩٢٣ ، ان تـطلق ذلـك النشـاط بقوة) .

هنا يمكن التعرف إلى أي درجـة يخطىء أولئـك الذين عـلى خـطى روزا لكسمبـورغ عــام ١٩٠٣ ـ كـانت روزا ١٩١٨ قـد أصبحت أكثر حذراً ! ـ مـا يزالـون يعتقدون إلى اليـوم أن اللجوء الى نشاط الجماهير هو العـلاج التاريخي الـوحيد لمخـاطر البقـرطة المحافظة للحزب . فيما يخص حال الاتحاد السوفياتي عـلى الأقل ، سبقت السلبية المتنامية للجماهير (وحتمت الى حد بعيد) بقرطـة الحزب المتنامية . ويمكن الاعتراف للينـين بهذه المـزيّة التـاريخية في انـه لو قـارنا درجـة نشاط الجمـاهير في السـوفيـاتـات التي قـادهـا البـلاشفة سيـاسياً بـدرجته في سـوفياتـات أخـرى ، مـدة العمـل الفعـلي للسـوفيـاتـات في روسيـا بمـدة عمـل أجهـزة من النمـوذج السـوفيـاتي في البلدان التي لم يكن فيهـا بـلاشفـة مهيمنـين داخـل

الطبقة العاملة ، فإن وجود حزب ثوري طليعي من النموذج اللينيني و «دوره المهيمن » لا يمكن اعتبارهما متناقضين مع منظمة مستقلة للجماهير في أجهزة من النموذج السوفياتي ، لا بل إنهما يضمنان لها على العكس وجوداً أطول وعملاً أفضل وأكثر فعالية .

(٨)

إنه لواضح أنه أثناء جدال ١٩٠٢ ـ ١٩٠٣ بخس لينين تقدير الأخطار التي يمكن ان تولد بالنسبة للحركة العمالية بفعل تشكل بيروقراطية داخلها . كان آنذاك يركز نيرانه على الانتليجنسيا البورجوازية الصغيرة وعلى «التريديونيين» ذوي الأفق الضيق . إن روزا لكسمبورغ التي استوعبت في تلك الحقبة جد الغامضة تجربة الاشتراكية ـ الديمقراطية الألمانية بصورة أفضل ، تمكنت أفضل من لينين ان تتوقع أن يكون الخطر الأعظم الكامن في الاتجاه المحافظ وفي التكيف مع الوضع الراهن لن ينبثق من الانتليجنسيا تلك ولا من التريديونيين، بل من الجهاز الاشتراكي ـ الديمقراطي بالذات . إن هذا الجهاز المركز في منظمات جماهيرية وفي تعويضات الديمقراطية البورجوازية ، كان في الواقع قد سبق و «حقق الاشتراكية لحسابه الخاص » . كان سيتبنى توجهاً محافظاً بصورة أساسية ، عقلنته ضرورة «الدفاع عن المكتسب» . إن المراجعة والنزعة الاصلاحية تمدان جذورهما المادية والاجتماعية ، لا بل

الايديولوجية في كل ذلك . إن «ديالكتيك الفتوحات الجزئية» هذا امتد فيما بعد إلى المستوى العالمي على يد البيروقراطية الستالينية .

على ضوء التجربة التاريخية ، أدرك لينين بصورة افضل بكثير ، انطلاقاً من عام ١٩١٤ ، الدور الأساسي الذي تستطيع بيرقراطية المنظمات العمالية أن تلعبه في تحويل تلك المنظمات من أداة لدفع ثورات اشتراكية الى اداة للدفاع عن الوضع الراهن الاجتماعي . لقد اعطى أهمية سياسية ، في نضاله ضد الاشتراكية ـ الديمقراطية العالمية ، لتحليل بقرطتها . ادرك منذ عام ١٩١٨ خطر بقرطة اول دولة عمالية وكرّس قسماً مهماً من سنوات حياته الأخيرة لمصارعة هذا الخطر .

إن لينين ، فيما كان يقوم بذلك ، رفع هذه المشكلة من الحقل الإيديولوجي والسيكولوجي (« العادات البيرقراطية» ، «الأساليب البيرقراطية » ، «الذهنية البيرقراطية») إلى المستوى الاجتماعي. إن البيرقراطية بالنسبة إليه هي شريحة اجتماعية تدافع عن مصالح اجتماعية محددة (بصورة أساسية في حقل مستوى الأجور ، نمط العيش ، المداخيل . هذا هو السبب في إنها ليست طبقة اجتماعية ، لا تحتل مكانة خاصة وضرورية تاريخياً في سيرورة الانتاج ، كما فعلت ، على الأقل في حقبة معينة من تاريخها كل الطبقات الاجتماعية). ومنذ عام ١٩١٨ ، نقل قسماً كبيراً من هذا الاستدلال الى حقل الدولة

السوفياتية والى النضال ضد التشويه البيرقراطي لتلك الدولة .

لقد أُخذ على لينين ما فحواه ان نمـوذج تنظيم الحـزب الذي نادى به سهّل سيرورة البقرطة في الاتحـاد السوفيـاتي . بما أن هـذا المـأخذ قـد جوبـه به عمليـاً منذ ١٩٠٢ ـ ١٩٠٣ فهـو يأخـذ بعـد فوات الأوان مظهر تحليل تنبؤ ي . سبق وأجبنـا أعلاه عـلى التفنيد الـذي يرى ان لينـين نادى بنمـوذج تنظيم غـير ديمقراطي . إلاّ أن كـل مسألـة نموذجٍ التنـظيم الممكن لـلأحـزاب العمـاليـة تستحق تحليلاً أكثر تفصيلاً .

إذا وضعنـا جـانبـاً نـادي النقـاش او التجمـع الـلاشكـلي والمنقطع لمجموعة أفراد ، فإن التاريخ قدم لنـا نموذجـين أساسيـين لتنـظيم الأحـزاب العمـاليـة : النمـوذج المؤسس عـلى الاختيـار الفـردي للمناضلين ، تبعـاً لمستوى وعيهم الفـردي ونشـاطهم ؛ ونموذج الفروع القائمة على أساس الدائرة الانتخابية ، التي تجمـع كل اولئك الذين يؤكدون اعتناقهم للمبادىء الاشتراكية . هذان النمـوذجان، وأحـدهما « واسـع » والآخر « ضيق » ، يـوافقان تماماً قسمة الاشتراكية ـ الديمقـراطية الـروسية بـين « مناشفـة » ، و «بلاشفة» .

أي من هـذين النموذجـين أثبت أنـه الأكـثر ديمقـراطيـة ؟ نقول على ضوء التجربـة التاريخيـة ان **الأول تبقرط بصـورة أسرع بكثير مما فعـل الثاني ، وأن هـذا الأخير ، تحـول كلياً في كـل حال**

عبر تبقرطه إلى النموذج الأول .

ليس صعباً ان نفهم أن تجمع عدد كبير من الأعضاء السلبيين ـ الذين يتغيبون عموماً عن الاجتماعات ـ دون مستوى وعي و «التزام» رفيعين ، يمكن تحريكه بصورة أسهل بكثير ، على يد جهاز أو ديماغوجيين فرديين ، مما هي الحال مع جماعة فعاليين ملتزمين عموماً بكل حياتهم في النضال من أجل قضية واحدة ، تحكم على فعالية كل واحد على ضوء المساهمة التي يقدمها للدفاع عن تلك القضية . كلما استوعب حزب «واسع» عناصر سلبية أكثر ، كلما سهَّل البقرطة . وكلما كان حزب طليعي مؤلفاً على وجه الحصر من مناضلين نشاطيين كلما كان الضمان أكبر ضد البقرطة . إن ستالين في كل حال ، بإغراقه العناصر الواعية والفاعلة ضمن عدد كبير من المنضمين السلبيين ، قد سهَّل إلى حد بعيد بقرطة الحزب البلشفي بعد موت لينين ، ـ تماماً كما كان لينين توجسَّ في «وصيته» المشهورة .

إن مشكلة بقرطة الحزب العمالي ـ وهي ظاهرة اجتماعية يسهلها أو يعيقها نموذج تنظيم محدد ، لكن ليس هذا الأخير سببه إطلاقاً ـ مرتبطة بشكل وثيق بمشكلة الديمقراطية العمالية ، اي بإمكانية رقابة الأعضاء على الجهاز ، وبلورة خط سياسي تبعاً لمصالح الطبقة التي ينبغي الدفاع عنها (وليس لغايات متعلقة بمصالح قطاعية ، أو لغايات تبرير ذاتي ، وهذا خطر يهدّد كل

تنظيم في مجتمع مؤسس على الانتاج السلعي وتقسيم العمل الاجتماعي) . إن الموازنة التاريخية واضحة في هذا المجال أيضاً . كان الحزب البلشفي إبان حياة لينين حزباً حياً وديمقراطياً يجتاز دورياً نقاشات محتدمة الاتجاهات ، تسمح بالتعبير عن آراء غير متفقة مع آراء القيادة (أو أكثريتها)، ولا تلقي الحرم على مواقف معارضة ، بحيث تسمح للتجربة بحسم التباينات التكتيكية . يمكن التأكيد أن هذا الحزب كان أكثر ديمقراطية ، وسمح بنقاشات اتجاهات اكثر منهجية من أي حزب عمالي مهم في التاريخ ، ـ وبالتأكيد من الأحزاب الاشتراكية ـ الديمقراطية .

صحيح أنه حين كانت عزلة البلاشفة في أقصى درجاتها ، إبان إدخال السياسة الاقتصادية الجديدة (النيب) ، اقترح لينين منع التكتلات في الحزب وتم له ذلك . لم يقترح هذا الأمر في كل حال إلا لأسباب عارضة وكتدبير عابر ، لا كمسألة مبدئية . يمكن التفكير ان هذا القرار كان مخطئاً ، ـ وعلى ضوء التاريخ ، نعتقد أنه كان كذلك فعلاً لأنه سمح لستالين ان يخنق تدريجياً حق الاتجاه وبالتالي كل ديمقراطية داخلية في الحزب .

لكن الذين يوردون ظافرين هذه «الخطيئة» للينين كمثبتة لـ «خطيئته الأصلية» المزعومة مناهضة للديمقراطية ينسون بسهولة فائقة أنه في **الوقت ذاته** الذي تطوع فيه لينين لصالح إلغاء حق

التكتل أثبت علناً حق المعارض شليا بنيكوف بفرض طبع وجهات نظره المعارضة وتوزيعها على حساب الحزب على **كل عضو في الحزب** ، بمئات آلاف النسخ : دُلُّونا إذن على حزب اشتراكي ـ ديمقراطي واحد مورس فيه هذا ، ونحن لا نقول منهجياً ، بل حتى عرضاً !

وفي المؤتمر العاشر ذاته للحزب الشيوعي الروسي الذي تم فيه اتخاذ قرار منع التكتلات ، أثبت لينين مجدداً بصورة ليست أقل علنية **حق الاتجاه** ، وهو يقف في وجه تعديل تقدم به ريازانوف الذي أراد أن يمنع في المستقبل انتخاب اللجنة المركزية على أساس برامج الاتجاهات . إذا انفجرت تباينات أساسية ، لا يمكن منع حسمها أمام مجمل الحزب ، هكذا صاح لينين (« الأعمال الكاملة » الجزء ٣٢ ص ٢٦٧ من الاصدار الألماني ، ديتزفرلاغ برلين ، ١٩٦١) . إنه منذ منعت البيرقراطية نقاشات من هذا النوع ، وحق الاتجاه هذا ، توقف الحزب عن أن يكون الأداة الثورية التي صنعها لينين .

لقد أوردت حجة أخرى أيضاً لتبرير «النزعة البيرقراطية الملازمة» لمفاهيم التنظيم البلشفية . أن لينين ذاته اضطر إلى التصدّي لـ «جهازه» الخاص به ، في كل مرة شرع بانعطاف باتجاه «الحركة الثورية للجماهير» ، وقبل كل شيء في نيسان ١٩١٧ . إن المدافعين عن هذا التصور ينسون تفصيلاً صغيراً :

ذلك أنه لم يكن في هذه الدراما التاريخية ثلاثة أشخاص رئيسيين وحسب . البطل «الايجابي» : الجماهير الثورية ؛ و «الخائن» : الجهاز المركزي للحزب ، ولينين المتنقل بين تلك وهذا . كان هناك كذلك آلاف المناضلين العماليين البلاشفة . إن الالتزام الحازم لهؤلاء العمال الطليعيين هو الذي سمع لـ «موضوعات نيسان» ، التي كتبها لينين ، ان تنتصر بتلك السرعة على مقاومة اكثرية اللجنة المركزية ، في بداية الثورة الروسية . إن غياب تلك الشريحة الوسيطة الحاسمة هو الذي منع لينين من تحقيق النجاح ذاته في عامي **١٩٢٢ ـ ١٩٢٣** ، إبان «معركته الأخيرة» ضد ستالين .

ها نحن إذن عدنا الى مقولة سوسيولوجية ، عوضاً عن اعتبارات سيكولوجية وايديولوجية صرفة . إن مقولة الشغيلة الطليعيين هذه، الشغيلة المجسدين للوعي الطبقي للبروليتاريا ، شبه الوحيدين في مرحلة تراجع أو ركود للحركة الجماهيرية ، الذين يكونون على صلة وثيقة بأكثرية طبقتهم حين تبلغ هذه الحركة الجماهيرية ذاتها مستواها الأرفع ، تلك المقولة هي التي تشكل الحلقة المركزية في التصور اللينيني للتنظيم . سوف نوجز هذا التصور بتأكيدنا أنه ينجح في بناء وحدة عناصر التواصل والانقطاع ، التربية والتمرين الدائم للمربين ، المركزة والديمقراطية ، تلك العناصر الملازمة للنضال البروليتاري . إنه

يجسد هكذا التراث الأَنسي والثوري الأكثر قيمة في التاريخ المعاصر .

التنظيم ، البيروقراطية والعمل الثوري

إلّا أن ثمة إشكالاً في هذا الصدد لم يدركه لينين (١٩٠٣ ـ ١٩٠٥) أو لم يفهمه كفاية (١٩٠٨ ـ ١٩١٤) في السنوات الأقسى من النضال ضد المناشفة . وهنا بالذات تبرز قيمة الإسهام التاريخي الذي قدمه تروتسكي وروزا لكسمبورغ لفهم الديالكتيك « طبقة عاملة ـ شغيلة متقدمون ـ حزب العمال » . إنه بالتحديد عدم نضج الوعي الطبقي لدى الجماهير الواسعة الذي أثبت ضرورة وجود طليعة ، **فصل** بين الحزب والجماهير . يتعلق الأمر هنا بإسهام ديالكتيكي معقد ، شدّد عليه لينين عدة مرات ، يدور حول وحدة الفصل والدمج ، ويتناسب مع الخصوصيات التاريخية للنضال الثوري من أجل قلب اشتراكي للمجتمع . طبعاً ، يتكون الحزب داخل المجتمع **البرجوازي** . لا يمكن ان يتجرد من بصمات التقسيم العالمي للعمل والانتاج السلعي ، الملازمة لهذا المجتمع ، والتي تؤدي الى **تشييء كل** العلاقات الانسانية[٣٨] . وهذا يعني ان ارساء جهاز حزبي

---

(٣٨) انظر ايضاً جورج لوكاش ، التاريخ والوعي الطبقي (برلين ، ١٩٢٣) ، ص ١٨٠ ـ ١٨٩ .

مقطوع عن جمهور الشغيلة يخفي خطر إضفاء الاستقلال على هذا الجهاز بالذات. حين ينجح هذا الاتجاه في فرض نفسه، يتحول الجهاز من أداة لبلوغ هدف (نجاح النضال الطبقي البروليتاري) إلى هدف بحد ذاته . هنا يوجد بالضبط جذر تشويهات الأمميتين الثانية والثالثة ، وتبعية الأحزاب الاشتراكية ـ الديمقراطية والشيوعية في أوروبا الغربية لبيروقراطيات محافظة واصلاحية اصبحت جزءاً من **الوضع الراهن**(٣٩) . إن البيروقراطية نتاج لتقسيم العمل ، أي لعجز الجماهير الواسعة عن الاضطلاع مباشرة لوحدها بكل المهام التي تتحكم بها وذلك لكونها لا تشارك الى حد بعيد في سيرورة الانتاج الثقافي والنظري في ظل الرأسمالية . يتناسب تقسيم العمل هذا مع **الشروط** المادية ، وليس بدعة موظفين . اذا تجاهلنا هذه الشروط نصل إلى الظاهرات ذاتها التي نصل اليها تحت تأثير البيروقراطية : تستنقع الحركة. نلامس هنا، انطلاقاً من زاوية أخرى ـ زاوية **تقنية التنظيم** ـ المشكلة ذاتها التي قمنا بعرضها : ليس نمط الانتاج الرأسمالي الإطار المثالي لتربية على النشاط ـ الذاتي البروليتاري ؛ إنه لا يعلم الشغيلة آلياً أن يكتشفوا ويستخدموا عفوياً أهداف وأشكال تحررهم .

---

(٣٩) ان الدفاع عن المصالح السياسية والمادية لتلك البيروقراطيات هو هكذا الجوهر الاجتماعي الذي تقوم عليه البنية الفوقية لهذا الاستقلال وللحمته الايديولوجية .

لقد بخس لينين ، في مجادلاته الأولى مع المناشفة ، تقدير خطر اضفاء الاستقلالية على الجهاز وبقرطة الأحزاب العمالية . كان يرى المشكلة المركزية في انتهازية الجامعيين البورجوازيين الصغار كما المدافعين البورجوازيين الصغار عن « النقابية الصرفة » وكان ليسخر من نضال العديد من رفاقه ضد خطر البيروقراطية .

في الواقع برهن التاريخ ان خطر الانتهازية الرئيسي في الاشتراكية الديمقراطية لما قبل الحرب العالمية الأولى لم يكن يأتي لا من الجامعيين ولا من المدافعين عن « النقابية الصرفة » لكن من **بيروقراطية الحزب الاشتراكي - الديمقراطي بالذات** ، وباختصار : من ممارسة «شرعية» كانت تقتصر من جهة على الانتخابية والنشاط البرلماني ، ومن جهة اخرى على النضال من اجل إصلاحات مباشرة في الميدان الاقتصادي والنقابي . (يكفي ان نصف هذه الممارسة ليصبح واضحاً إلى أي حد تشبه ممارسة الأحزاب الشيوعية الحالية في أوروبا الغربية) .

لقد لاحظ تروتسكي وروزا لكسمبورغ هذا الخطر بصورة أدق وأبكر مما فعل لينين . منذ عام ١٩٠٤ أشارت روزا لكسمبورغ إلى أن «فصلاً بين الجماهير المتحركة واشتراكية - ديمقراطية مترددة» هو أمر ممكن[٤٠] ، لكن فقط في حالة «المركزية

---

(٤٠) روزا لكسمبورغ تتكلم ، المرجع مشار اليه ، ص ١٢١ .

القصوى» للحزب ، وفقاً للمثال اللينيني . بعد ذلك بعامين ، صاغ تروتسكي المشكلة بدقة وافية : « إن الأحزاب الاشتراكية الأوروبية ، لا سيما أكبرها ، الحزب الاشتراكي ـ الديمقراطي الألماني ، تمّت نزعتها المحافظة بالنسبة ذاتها التي اعتنقت الجماهير العريضة وفقاً لها الاشتراكية ، وهذا بمقدار ما أصبحت تلك الجماهير أكثر تنظيماً وضبطاً . نتيجة لذلك يمكن للاشتراكية ـ الديمقراطية ، وهي التنظيم الذي يحيط بالتجربة السياسية للبروليتاريا ، أن تصبح في وقت ما عائقاً مباشراً في وجه تطور الصراع بين العمال والرجعية البورجوازية . بتعابير أخرى ، إن النزعة المحافظة لدى الاشتراكية الدعاوية في الأحزاب البروليتارية يمكن في احد الأوقات أن تكبح البروليتاريا في النضال المباشر من أجل السلطة »[41] . لم يكن لينين يريد في البدء أن يرى ذلك هكذا . وهو لم يغير رأيه إلا في بدء الحرب العالمية الأولى في حين كان اليسار الألماني قد توقف منذ سنوات عدة عن تغذية الأوهام حول قيادة الحزب الاشتراكي ـ الديمقراطي[42] .

(٤١) ليون تروتسكي ، « **نتائج وتوقعات** » ، « **١٩٠٥** » . منشورات مينوي ، باريس ١٩٦٩ ، ص ٤٦٣ .

(٤٢) انظر مثلاً مزحة كلارازتكين حول قيادة الحزب الاشتراكي الالماني (وافتقاد كاوتسكي للحزم) في الرسائل المتبادلة بصدد الخطر الذي مارسته تلك القيادة عام ١٩٠٩ ضد ظهور « **طريق السلطة** » لكاوتسكي . فلنقارن ذلك بالاحترام الذي ابداه لينين تجاه كاوتسكي في السنة ذاتها .

نظرية التنظيم
البرنامج الثوري، الممارسة الثورية

بعد الصدمة الشديدة التي تلقاها لينين في الرابع من آب ١٩١٤ ، قام بالخطوة الحاسمة في هذه المسألة . **لم يعد يفهم التنظيم في وظيفته وحسب، بل كذلك في مضمونه** . لا يتعلق الأمر فقط بمعارضة «التنظيم عموماً بالـ «عفوية» على وجه العموم ، وكما فعل لينين في «ما العمل ؟» وفي «خطوة إلى الأمام ، خطوتان إلى الوراء» . ينبغي من الآن وصاعداً أن يقوم تمييز دقيق ، وأكثر بكثير ، بين التنظيم المحافظ موضوعياً والتنظيم الثوري موضوعياً ، انطلاقاً من مقاييس **موضوعية** (البرنامج الثوري ، نقل هذا البرنامج إلى الجماهير ، الممارسة الثورية ، الخ . . .) . ينبغي اعتبار إرادة النضال العفوية لدى الجماهير كأهم من الأعمال الإصلاحية المحافظة للتنظيمات الجماهيرية .

يمكن للمقدسين «الساذجين» للتنظيم أن يزعموا أن لينين التحق بعد عام ١٩١٤ بوجهة النظر اللكسمبورغية حول «العفوية» عندما يدافع ، في حال الخلاف بين «الجماهير غير المنظمة» والتنظيم الاشتراكي الديمقراطي ، عن الأولى ضد الثاني وعندما يتهم الاشتراكيين الديمقراطيين بخيانة الجماهير[٤٣] .

---

(٤٣) لينين : « إفلاس الأممية الثانية » : لينين زينوفييف : « ضد التيار » ، ماسبيرو باريس ١٩٧٠ ص ١٨١ .

أكـثر من ذلـك ، أصبـح لينـين يفكـر مـذ ذاك أن الشـرط المسبق لتحـرر ذاتي للبـروليتـاريـا هــو في تحـطيم تلك التنـظيمـات التي أصبحت محافظة[٤٤] .

إن التصحيـح أو التكملة التي أدخلهـا لينـين عـام ١٩١٤ عـلى نظريتـه في التنظيم ، لم تكن تعني مـع ذلك خـطوة الى الوراء تضفي طابعاً مطلقاً عـلى العفويـة الصرفـة ، بل خـطوة إلى الأمام في التمييـز بين حـزب ثوري وتنـظيمٍ عـلى وجـه العمـوم . مكـان اشتراط أن ينمي الحزب وعياً سياسياً لدى الطبقة العاملة ، تظهـر مـذ ذاك الصيغة التـالية : إن عـلى الطليعـة الثوريـة مهمة إيقـاظ وتنمية وعي ثوري في صفوف الشغيلة المتقدمين . إن بناء الحـزب الثوري يعني دعـم برنامج الثورة الاشتراكية بتجربـة النضال لـدى أكثرية الشغيلة المتقدمين[٤٥] .

---

(٤٤) المرجع نفسه ص ١٨١ .

(٤٥) لينين : « مرض الشيوعية الـطفولي » في « الأعمـال المختارة في ٣ أجـزاء » المجلد الثالث موسكو ١٩٦٨ . انظر كذلك المقطع المستشهد به أعلاه من كـراس روزا لكسمبورغ ، « مـاذا تـريـد عصبـة سبـارتـاكـوس ؟ » هـذه الاستنتاجات كانت أكثر بلورة من استنتاجات تروتسكي عام ١٩٠٦ أو روزا لكسمبورغ عام ١٩٠٤ اللذين كانا يغذيان اوهاماً حول قدرة الجماهير على حل مسألة الاستيلاء على السلطة في انطلاقتها الثورية في حالة تنامي النزعة المحافظة لدى الجهاز الاشتراكي ـ الديمقراطي . في « الاضراب الجماهيري ، الحزب والنقابة » ، تلقي روزا لكسمبورغ المشكلة مؤقتاً على الشرائح الأكثر حرماناً و «انعدام تنـظيم» من البروليتـاريا ، التي لا تعـرف الوعي إلا في =

هذا التوسيع لنظرية التنظيم بعد انفجار الحرب العالمية الأولى يسير جنباً الى جنب مع التحقق من الفهم اللينيني حول حالية الثورية . فيما كان هذا المفهوم ما قبل عام ١٩١٤ ، يقتصر في الأساسي منه على روسيا ، امتدّ منذ عام ١٩١٤ إلى كامل أوروبا (فيما يخص حالية الثورة في البلدان المستعمرة ونصف المستعمرة ، كان لينين قد أصبح واضح الرؤ ية بعد الثورة الروسية لعام ١٩٠٥) .

إن صحة «الخطة الاستراتيجية» اللينينية بالنسبة للبلدان الامبريالية في أوروبا الغربية اليوم ترتبط إذن مباشرة بمسألة طبيعة المرحلة التاريخية التي نعيش فيها . لا يمكننا ، من وجهة نظر المادية التاريخية ، ان نستنتج مفهوماً عن الحزب من «حالية الثورة» إلا إذا انطلقنا من الفرضية ـ الصحيحة والقابلة للبرهان بنظرنا ـ التي تقول إن النظام الرأسمالي العالمي يعيش ، منذ الحرب العالمية الأولى ، وعلى أبعد تقدير منذ ثورة أوكتوبر ، مرحلة أزمة بنيوية[٤٦] ، ينبغي ان تقود بالضرورة دورياً الى

= الاضراب الجماهيري . حتى لينين ، في كتاباته لما بعد عام ١٩١٤ ، نوه بهذه الجماهير ضد « الارستقراطية العمالية » مختزلاً هكذا المسألة بصورة مقبولة . إن شغيلة المؤسسات الكبرى للفولاذ وتحويل المعادن مثلاً ، الذين كانوا جزءاً من الشرائح غير المنظمة في البروليتاريا الالمانية ، قد تجذروا بعد عام ١٩١٨ .

(٤٦) ينبغي ألا نخلط هذه الأزمة العامة للرأسمالية، أي بداية عصر انحدار =

حالات ثورية . إذا سلمنا على العكس أننا ما نزال الى الآن في مرحلة صعود للرأسمالية ، ينبغي عند ذلك رفض فهم من مثل ذلك على أساس ـ انه «ارادوي» ، لأن ما هو حاسم في خطة لينين الاستراتيجية ، ليس **الدعاية** الثورية التي ينبغي بالطبع على الثوريين ان يمارسوها حتى في الفترات غير الثورية بل التوجه المتحور حول **أعمال** ثورية سوف تحدث على المدى القصير أو المتوسط . كانت أعمال كهذه ممكنة أيضاً في فترة صعود الرأسمالية (كومونة باريس)، لكنها كانت تظل استثناءات غير ناجحة . إن بنية للحزب مركزة حول الإعداد لانخراط فعال في أعمال من مثل تلك الأعمال لا يعود لها مذ ذاك أي معنى .

إن الفرق بين «حزب عمالي» (من وجهة نظر أعضائه أو حتى ناخبيه) وحزب عمالي ثوري (أو نواب حزب من ذلك النوع) لا يكمن فقط في برنامجه أو وظيفته الاجتماعية الموضوعية ـ تشجيع لا اضعاف كل الأعمال الجماهيرية الثورية موضوعياً ، كما المطالب وأشكال العمل التي تضع موضع الاتهام أسس نمط الانتاج الرأسمالي والدولة البورجوازية ـ بل كذلك في قدرته على

= الرأسمالية بالأزمات المحتملة ، أو بتعبير آخر الأزمات الاقتصادية الدورية التي حدثت سواء في مرحلة ازدهار الرأسمالية او في مرحلة انحدارها . يرى لينين ان العصر الذي فتحته الحرب العالمية هو « عصر الثورة الاجتماعية الذي يبدأ » . (« ضد التيار » المرجع المذكور . انظر ايضاً « افلاس الاممية الثانية » ، المرجع نفسه ، ص ٣٩٣) .

نقل هذا البرنامج بصورة مثقِّفة .

يمكن تحديد المسألة بدقة بالصورة التالية : هل يقتصر خطر إضفاء الاستقلال على الجهاز على المنظمات «العمالية» الانتهازية والإصلاحية ، أو أنه يهدد كل منظمة ، حتى تلك التي تملك برنامجاً وتتبع نهجاً ثورياً ؟ هل البيرقراطية هي النتيجة المحتومة لكل تقسيم للعمل، بما فيه بين «القيادة» و «الأعضاء» في مجموعة ثورية ؟ وانطلاقاً من ذلك ، ألا يمكن القول إن كل تنظيم ثوري ، مذ يتخطى اتساعاً معيناً ، محكوم بأن يصير في مرحلة من تطوره وتطور النضالات الطبقية كابحاً للتحرر الذاتي للبروليتاريا ؟

إذا وافقنا على صحة هذه المحاجة ، لا يبقى إلّا استخلاص نتيجة هي استبعاد التحرير الاشتراكي للطبقة العاملة والبشرية جمعاء . لأنه ينبغي اعتبار إضفاء الاستقلال هذا وذلك التشييء ، المزعومة حتميتهما ، لأي منظمة، كأحد طرفي المأزق الذي يعني طرفه الآخر عند ذلك الإسقاط المحتوم في «الوعي المزيف» البورجوازي الصغير والبورجوازي لكل الشغيلة غير المنظمين ، لكل المثقفين المتقوقعين في ممارسات قطاعية ، لكل هؤلاء الذين على هامش الانتاج العام للسوق . إن الممارسة الثورية التي تهدف الى الوعي الكلي وإلى اغناء النظرية هي وحدها التي تمنع نفاذ «ايديولوجية الطبقة المسيطرة»

حتى الى صفوف ثوريين فرديين . لا يمكن لهذه الممارسة إلا ان تكون منظمة وجماعية . إذا كانت المحاجة المذكورة أعلاه صحيحة ، فينبغي ان نستنتج منها أن الشغيلة المتقدمين ، أكانوا منظمين أو غير منظمين ، ينحكمون اذ ذاك بعدم اكتساب وعي طبقي سياسي اوبفقدانه .

إلّا ان هذه المحاجة هي في الواقع مغلوطة لأنها تماثل بين بدء سيرورة ونتيجتها النهائية ؛ لأنها تستنتج بصورة جامدة وقدرية من خطر إضفاء الاستقلال على التنظيمات ، حتى الثورية منها ، حتمية إضفاء الاستقلال ذلك . ليس هذا قايلاً للبرهان ، لا بصورة تجريبية ولا على الصعيد النظري . ذلك أن شدة خطر التشويهات البيروقراطية لمنظمة ثورية للطليعة - وبالأحرى لحزب ثوري - لا تتوقف فقط على نزعة إضفاء الاستقلال التي تولدها عملياً كل المؤسسات في المجتمع البورجوازي ، لكن كذلك على نزعات معاكسة ، كما على سبيل المثال : دمج منظمات ثورية في حركة أممية مستقلة عن المنظمات «القومية» وقادرة على مراقبتها نظرياً (ليس عبر جهاز ، بل بفضل النقد السياسي) ؛ المساهمة في نضال الطبقات وفي المعارك الثورية التي تسمح باختيار دائم للكوادر عبر الممارسة ، المحاولة المنهجية لتخطي قسمة العمل بكفالة تبادل متواصل بين المؤسسة والجامعة ومراكز المتفرغين ، الضمانات المؤسسية (إنقاص

مدخول المتفرغين ، الدفاع عن قواعد الديمقراطية الداخلية في المنظمة وعن حرية الاتجاه والتكتل ، الخ . . .) .

إن حل هذا التناقض يتوقف على النضال الداخلي بين هذه الاتجاهات، الذي يحكمه هو ذاته عاملان اجتماعيان(٤٧) : من جهة، درجة الامتيازات الاجتماعية التي تقدمها « المنظمة المضفى عليها الاستقلال». ومن جهة أخرى درجة **النشاط السياسي** لطليعة الطبقة العاملة. فقط إذا اندثرت هذه الأخيرة بصورة حاسمة، يتجلى العامل الأول هو الآخر بصورة حاسمة . إن المحاجة بكاملها ترجع إجمالاً إلى حشو مضجر: **كلما كانت الطبقة العاملة سلبية،** كلما قل عملها النشط من أجل تحررها. لا تبرهن مع ذلك هذه المحاجة في شيء أنه **عندما تصبح طليعة الشغيلة أكثر نشاطاً،** تكون المنظمات الثورية أدوات غير فعالة لتحرير البروليتاريا وأن «حرية اختيارها» يمكن وينبغي أن يحد منها النشاط

---

(٤٧) هنا يكمن بالضبط الضعف الأعظم لهذه النظرية الجبرية : فهي تستنتج آلياً من النزعات إلى التشييء الخطر الاجتماعي ، دون ان تدخل في التحليل توسط السلطة الاجتماعية الكامنة والامتيازات الاجتماعية . إن إضفاء الاستقلال على البوابين وامناء الصندوق لا يعطيهم السلطة على البنوك او المشاريع الكبرى - إذا لم يكن « سلطة » السرقة ، وهو ما لا يمكن تحقيقه إلا ضمن بعض الشروط . ينبغي لتحديد هذه الشروط أن ينضاف إذن إلى تحليل الاتجاهات نحو إضفاء الاستقلال ، لإعطائه مضمونه الاجتماعي .

الذاتي للطبقة (أو جناحها الأكثر تقدماً) . إن المنظمة الثورية أداة لتحقيق الثورة . والثورات البروليتارية مستحيلة إطلاقاً دون نشاط سياسي متنام للطبقة العاملة .

نظرية التنظيم
المركزية الديمقراطية وديموقراطية المجالس

يؤخذ على النظرية اللينينية في التنظيم أنها تمنع عبر مركزة مبالغ بها تطور الديموقراطية الداخلية للحزب . يستند هذا المأخذ على سوء فهم . عندما يركز لينين التنظيم حول أعضاء **نشيطين ، يعملون تحت رقابة جماعية** ، يوسع في الواقع أكثر بكثير مما يضيق هامش الديموقراطية داخل الحزب . مذ يتخطى تنظيم عمالي عدداً معيناً من الأعضاء ، يصبح هناك نموذجان (Models) اثنان عن التنظيم ممكنين بصورة أساسية : نموذج جمعية الناخبين (أو المنظمة الاقليمية) التي تتناسب اليوم سواء مع الأشكال التنظيمية للحزب الاشتراكي أو مع تلك التي للحزب الشيوعي ، أو نموذج عصبة محاربين يستندون الى أعضاء نشطين وواعين . صحيح أن الأول يترك نظرياً هامشاً معيناً للمناورات إلى المعارضين ، لكن فقط طالما لا يتعلق الأمر إلا بمسائل طفيفة . **إن الجمهور العريض للأعضاء غير المسيسين والسلبيين** ـ الذين يتبع قسم مهم منهم حتى مادياً للجهاز (أكثرية الشغيلة

والمستخدمين البلديين ومستخدمي الادارة ؛ المستخدمون في المنظمة العمالية ذاتها ، الخ. . .) ـ **يقدم في هذه الحالة للجهاز قاعدة استفتائية قابلة للتحريك في كل حين** ، لا علاقة لها في كل حال بالوعي الطبقي . أما المنظمة القتالية على العكس ، التي ينخرط أعضاؤها بصورة واعية ونشطة فتستند إلى مصالح كل منهم وتعطيهم على الأقل إمكانية حكم مستقل . إنه لأصعب بكثير على «طالبي وجاهة صرفين» أو على وصوليين صرفين أن يلمعوا في منظمات من مثل هذه ، مما في جمعيات منتخبين مبتذلة . إن التباينات تنحسم فيها بالخضوع المادي او باخلاص مطلق أقل بكثير مما بنقاش معمق . بالتأكيد ، إن بنية تنظيمية كهذه لم تصبح حصانة كافية ضد البقرطة ، لكنها تخلق مع ذلك الشروط القادرة على مضايقتها(٤٨) .

---

(٤٨) ان القواعد الشكلية التي تضمن سير المركزية الديموقراطية ـ حق كل الأعضاء بالاطلاع على الاختلافات في داخل القيادة ؛ حق الأعضاء في الاطلاع على الاتجاهات المتعارضة قبل انتخاب القيادة وقبل المؤتمرات ؛ حق المراجعة الدورية لقرارات الأكثرية على ضوء التجارب التي خيض فيها ، اي حق الأقليات في ان تحاول بصورة دورية الدفع باتجاه العودة عن قرارات الأكثرية ؛ حق التنظيم في اتجاهات ، الخ . . . هذه القواعد هي بالطبع جزء لا يتجزأ من الشروط ذاتها . هذه القواعد اللينينية للمركزية الديموقراطية صيغت بصورة ملائمة في الأنظمة الجديدة للحزب التي أُعدّت قبل آب ١٩٦٨ للمؤتمر الرابع عشر للحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي . وقد كان رد فعل الناطقين بلسان المركزية البيروقراطية هو الغزو. ان العودة المقترحة الى =

ان العلاقات بين التنظيم الثوري (نواة الحزب او الحزب) والجماهير العاملة تتعدل فجأة مذ تبرز حالة ثورية . عند ذلك الحين تبدأ البذور التي نشرتها المجموعات الثورية والاشتراكية الواعية تنبت . اذ ذاك أيضاً يمكن للجماهير العريضة ان تبلغ مباشرة وعياً طبقياً ثورياً . وتستطيع المبادرات الثورية للجماهير العريضة ان تتخطى بكثير مبادرات العديد من التجمعات الثورية .

لقد أشار تروتسكي عدة مرات في «تاريخ الثورة الروسية» الى ان الشغيلة الروس كانوا يلتحقون سريعاً بالحزب البلشفي في بعض اللحظات العصيبة من الثورة(٤٩) . لا يمكن مع ذلك تعميم هذا الواقع ، ينبغي قبل كل شيء تذكر ان الحزب البلشفي ، ما قبل «**موضوعات نيسان**» للينين ، كان مزوداً بتصور استراتيجي غير كاف حول طبيعة وأهداف الثورة الروسية(٥٠) . عندما بدأ هذا النقص يبرز بصورة قاسية في داخل

= القواعد اللينينية للمركزية الديموقراطية كانت تشكل في الواقع احدى « حجار العثرة » الرئيسية بالنسبة للبيروقراطية السوفياتية في تطور الوضع في تشيكوسلوفاكيا .

(٤٩) ليون تروتسكي : « تاريخ الثورة الروسية » المرجع المذكور الجزء الأول ص ١٨٧ .

(٥٠) تربى الحزب البلشفي من عام ١٩٠٥ إلى عام ١٩١٧ ضمن منظور « ديكتاتورية العمال والفلاحين »، أي بروح صيغة كانت ترى إمكان تحالف بين حزب عمالي وحزب فلاحي في إطار النظام الرأسمالي للزراعة والصناعة =

الحزب ، تدخل لينين وكتب «**موضوعات نيسان**» . لقد أمكنه أن يقوم بذلك بنجاح لأن أكثرية الشغيلة البلاشفة المكونين كانوا يدفعون في الاتجاه ذاته ولأن هؤلاء كانوا يعبرون من جهتهم عن

= الروسية . ولقد احتفظ لينين بتلك الصيغة حتى نهاية عام ١٩١٦ تقريباً . لم يفهم حتى عام ١٩١٧ أن تروتسكي كان على حق حين رأى منذ عام ١٩٠٥ أن المسألة الزراعية لا يمكن ان تحل إلا في سياق ديكتاتورية البروليتاريا وتشريك الاقتصاد الروسي . إن هارتموت مهرنغ - («مقدمة تاريخية» لكتاب تروتسكي : مهامنا السياسية، المصدر نفسه ص ١٧ - ١٨) كان مخطئاً تماماً حين ربط نظرية التنظيم اللينينية باستراتيجيته المحددة بالنسبة للثورة الروسية ، وفي شرحه لها على أساس انها الدور « الثانوي » (؟) بالنسبة للطبقة العاملة في هذا الصراع ، وفي كونه يعزو الى نظرية الثورة الدائمة نظرية تروتسكي حول الامتداد التدريجي للوعي الطبقي الى الطبقة العاملة ككل . وبمعزل عن حقيقة ان مهرنغ يقدم ملخصاً غير وافٍ وغير دقيق لاستراتيجية لينين الثورية (كان لينين يؤيد «الاستقلال المطلق» للطبقة العاملة الروسية في مواجهة البرجوازية الروسية ، وكان مؤيداً ، بشكل كامل ، لأن تلعب هذه «الطبقة دوراً» قيادياً في الثورة)، وبمعزل عن حقيقة ان لوكسمبورغ ، كلينين ، رفضت اي محاولة لانشاء دكتاتورية البروليتاريا في روسيا ، على أساس انها قبل أوانها ، وعينت للصراع الثوري للبروليتاريا الروسية هدفاً واحداً هو حل المهمات التاريخية لثورة البرجوازية (مع انها ناضلت في الوقت نفسه ضد نظرية التنظيم اللينينية)، فانه يبدو واضحاً لنا ان نظرية الثورة الدائمة بحد ذاتها (اي مهمة اقامة دكتاتورية البروليتاريا في بلد نام) لا يمكن تحقيقها بالحد الأدنى من الواقعية سوى من خلال التركيز الشديد على المهام الثورية بشكل عام . ولهذا فانها لا تقودنا بعيداً عن نظرية التنظيم اللينينية ، بل تقودنا اليها رأساً . راجع بهذا الخصوص أيضاً المنشور الممتاز الذي كتبه دميس افيناس ، **الاقتصاد والسياسة في فكر تروتسكي** (باريس ، ١٩٧٠) .

التجذر الشديد للطبقة العاملة الروسية .

لا شك في ان تقويماً موضوعياً وشمولياً لـدور تنظيم الحـزب البلشفي في الثورة الروسية يتطلب صياغة مختلفـة بعض الشيء . ومـع ان الكوادر القيـادية للحـزب بدت عـدة مرار كـما لـو كـانت العـائق الأساسي في وجـه انتقال الحـزب الى المواقف التـروتسكية للنضال من أجل ديكتاتورية البروليتاريا (السلطة للسـوفياتـات) ، فلقد تكشف ان وجود منـظمة مكـونة من اطـارات عماليـة ثوريـة مرباة عـلى امتداد عقـدين على التنـظيم والنشاط الثـوري ، سمح بـالانعطاف الاستـراتيجي الحاسم من اجـل النجاح . وإذا أصـرّ احـد على تبيـان علاقـة بين البيـروقراطيـة الستـالينيـة و «المفهـوم اللينيني عن الحـزب» ، كان عليـه على الأقـل ان يقر بهـذا العنصـر الحاسم في العملية : **لم يكن نجاح ستالـين عائـداً الى «النظريـة اللينينيـة في التنـظيم» لكن إلى اختفـاء لحـظة مهمـة من هـذا المفهـوم . إن ما كـان ينقص بعد مـوت لينين ، إنمـا هـو شـريحة واسعـة من الكادرات العمـالية الثـورية المكـونة ، القـادرة عـلى القيـام بنشاط سيـاسي في علاقـة دقيقـة بـالجمـاهـير** . ان يكـون المفهوم اللينيني عن الحزب أمكن تحويله الى نقيضـه ، فإن لينـين بالذات لم يكن ليجـادل في ذلك أبـداً[٥١] . إن نظام السـوفياتـات

---

(٥١) لينين ، المؤلفات الكاملة (باريس ، ١٩٦٩) ص ٧٤ .
« لقد شدد كراس » ما العمل ؟ تكراراً على كون منظمة الثوريين المحترفين التي يفترضها لا معنى لها إلاّ اذا تم ربطها بالطبقة الثورية حقاً التي يتصاعد =

هو الجواب الوحيد الشامل الذي أعطته الطبقة العاملة حتى الآن لمسألة تنظيم نشاطها المستقل أثناء الثورة وبعدها . يسمح هذا الجواب بجمع كل قوى الطبقة ـ وكل الشرائح المتقدمة في المجتمع ـ في مواجهة مفتوحة متزامنة لكل الاتجاهات المختلفة الموجودة داخل الطبقة . إن نظام سوفياتات حقيقياً ـ اي نظاماً يجري انتخابه بالفعل من قبل جمهور الشغيلة ولا يفرضه عليهم جهاز السلطة الخاص هذا أو ذاك ـ يعكس التنوع الاجتماعي والايديولوجي للشرائح البروليتارية . إن مجلساً عمالياً هو في الواقع جبهة واحدة لمختلف المجموعات السياسية التي تتفق على نقطة مركزية : الدفاع المشترك عن الثورة ضد العدو الطبقي . (في الطريقة نفسها تعكس لجنة اضراب اكثر الاتجاهات المختلفة اتساعاً بين العمال ، مع استثناء وحيد ، انها تضم فقط تلك الاتجاهات التي تشارك في الاضراب حيث لا يوجد أي مكان لأعداء القضية العمالية في لجنة الاضراب) .

لا يوجد بالتالي اي تناقض أساسي بين منظمة ثورية وفقاً للنموذج اللينيني وديموقراطية سوفياتية او سلطة سوفياتات فعلية . على العكس ، فبدون عمل التنظيم المنهجي لطليعة ثورية يسقط نظام السوفياتات تحت تأثير البيروقراطيين

= نضالها حتمياً » . ويؤكد لينين ان الوسيلة الوحيدة للتغلب على واقع التواجد الضئيل لتجمع صغير تأتي من خلال امكانية « الحزب عبر عمله الجماهيري العلني الوصول الى عناصر البروليتاريا » . (المصدر نفسه ، ص ٧٥) .

الاصلاحيين أو نصف الاصلاحيين (كما نظام السوفياتات الألمانية بين عامي ١٩١٨ و ١٩١٩) أو يفقد قوته السياسية الضاربة لأنه لا يتوصل الى الاضطلاع بالمهام السياسية المركزية (كما اللجان الثورية الاسبانية بين حزيران ١٩٣٦ وربيع ١٩٣٧) . إن الفكرة القائلة إن نظام السوفياتات يجعل الحزب «نافلاً» هي فكرة غير معقولة ؛ إما أنها تفترض مسبقاً ان السوفياتات تؤدي الى انسجام الطبقة العاملة في ليلة وضحاها ، تجعل الفروق الايديولوجية والاختلافات في المصالح تختفي ، و «توحي» آلياً وعفوياً للطبقة بأكملها «الحلول الثورية» لكل المشكلات الاستراتيجية والتكتيكية ؛ أو أنها ليست سوى حجة لإعطاء مجموعة صغيرة من « القادة » المنصِّبين أنفسهم إمكانية التلاعب بالجماهير ، بمقدار ما تمنع بصورة منهجية أن تتواجه الجماهير بالمسائل الاستراتيجية والتكتيكية للثورة، أي أن تناقش بحريّة وتتمايز سياسياً (كما هي الحال مثلاً في نظام التسيير الذاتي اليوغسلافي) .

إن المنظمة الثورية تسمح بأن يضمن للشغيلة في نظام السوفياتات درجة نشاط مستقل ووعي ذاتي ، إذن وعياً طبقياً أرفع بكثير مما يمكن أن يفعله نظام تمثيل غير متمايز . ينبغي دون شك أن تستثير النشاط المستقل للشغيلة باتجاه هذا الهدف . وهنا تكمن بالضبط الميزة الرئيسية لنظام السوفياتات . هل يمكن

التوفيق بين درجة عالية من النشاط الذاتي للـ «قاعدة» والمفهوم اللينيني عن التنظيم ؟ بالتأكيد ، لأن هذا المفهوم ، مدعوماً باستراتيجية ثورية سليمة (أي بتقدير سليم للسيرورة التاريخية الموضوعية)، يعني شيئاً آخر غير توحيد نشاط الجماهير ، إنه الذاكرة الجماعية والمنسق للتجارب التي تقوم بها الجماهير .

حول هذه المسألة أيضاً برهن التاريخ أن ثمة فرقاً أساسياً بين حزب يسمى ثورياً وحزب ثوري هو ثوري بالفعل . عندما لا يفعل فريق موظفين غير معارضة مبادرة ونشاط الجماهير ، بل يحاول بكل الوسائل ، بما فيها القوة العسكرية ، أن يحطمها (فلنفكر بالمجر في تشرين الأول ـ تشرين الثاني ١٩٥٦، او بتشيكوسلوفاكيا في آب ١٩٦٨) وعندما لا يجد هذا الفريق أي رابطة تربطه بنظام السوفياتات المولود عفوياً من النضالات الاجتماعية ، بل يحطم هذا النظام بحجة الدفاع عن «الدور القائد للحزب»[٥٢]، لا نعود أمام حزب ثوري للبروليتاريا بل

---

(٥٢) ان « الدور القيادي للحزب » في النظام السوفياتي دور سياسي في نظر لينين وليس استبدالاً . فليس دوره الحلول محل الأكثرية في السوفيات بل اقناعها بصحة السياسة الشيوعية . ولا ذكر « للدور القيادي للحزب » في مؤلف لينين الأساسي حول السوفيتات ، « الدولة والثورة ». وفي كتابات لينين في زمن الفوضى الكبرى والحرب الأهلية التي عبّر فيها أحياناً عن آراء حادة حول مسائل تكتيكية ثمة حجج ضد « السوفيات بدون شيوعيين » ولكن لا حجج لصالح « الشيوعيين دون سوفيتات ».

أمـام جهاز يـدافع عن المصـالح النـوعية الخـاصـة بشـريحـة ذات امتيـازات ومعادية للنشـاط المستقـل للجمـاهـير : عنينـا البيروقراطيـة . إن واقع إمكـان انحطاط حـزب ثوري الى حـزب للبيـروقراطيـة لا يشكل مـع ذلك حجـة ضد المفهـوم اللينيني عن التنـظيم أكثر ممـا يشكل واقـع كون أطبـاء قتلوا اكـثر من مـريض بدلاً من إنقاذه حجـة ضد المفهـوم اللينيني الطبي . إن أي خـطوة إلى وراء هـذا الفهم باتجـاه العفويـة «الصرفـة» للجماهـير تقـارن بعودة من العلم الطبي الى الشعوذة .

سوسيولوجيا النزعة الاقتصادية والبيروقراطية والعفوية

فيـما نحن نشرح كـون المفهـوم اللينيني عن التنـظيم هـو في الـواقع مفهـوم عن حاليـة الثورة البـروليتاريـة ، كنـا قـد وضعنـا الإصبع على اللحظة المركزية للنظرية اللينينيـة عن الوعي الـطبقي البروليتاري : مسألة الذات الثورية في النظام الرأسمالي .

بـالنسبة لمـاركس ولينين (كـما بالنسبـة لـروزا لكسمبـورغ وتـروتسكي ، وإن كـان هــذان لم يستخلصـا قبــل عـام ١٩١٤ الاستنتاجات الضرورية) **إن الـذات الثوريـة هي الطبقـة العاملة الحقيقية** ، الثورية بصورة كامنة ودورية ، كما تشتغـل وتفكر وتحيـا

في النظام الرأسمالي[٥٣] . إن النظرية اللينينية عن التنظيم تنبع بصورة طبيعية من هذا التحديد للذات الثورية ، لأنه بديهي أنه وفقاً لذلك التحديد لا يمكن لتلك الذات إلا أن تكون متناقضة ، فالبروليتاريا هي من جهة معرّضة لعبودية الأجرة ، للعمل المستلب ، لتشييء كل العلاقات الانسانية ، لتأثير الايديولوجيا البورجوازية والبورجوازية الصغيرة ، لكنها من جهة أخرى ، وبصورة دورية ، تحزم أمرها على الانخراط في نضالات طبقية تجذيرية ، أو حتى في أعمال ثورية علانية ضد نمط الانتاج الرأسمالي وجهاز الدولة البورجوازية . إن تاريخ النضال الطبقي الحقيقي للمئة وخمسين سنة الماضية يعبر عن نفسه في هذه التموجات الدورية . إنه ببساطة يستحيل علينا ان نصف بصورة ملائمة تطور الحركة العمالية الفرنسية أو الألمانية مثلاً خلال المئة سنة الأخيرة ، عن طريق النظر اليها بصورة حصرية ، إما من زاوية «سلبية متنامية» أو من زاوية «نشاط ثوري غير منقطع» . يتميز هذا التطور بصورة واضحة بوحدة هذين العنصرين ،

---

(٥٣) إن جورج لوكاش («التاريخ والوعي الطبقي» ص ٣٠٩ . . .) يخطىء حين يعتقد ان بوسعه اكتشاف جذور « النظرية العفوية » لروزا لكسمبورغ في « وهم ثورة بروليتارية صرفة » . حتى في البلدان التي اصبحت فيها أهمية البروليتاريا العددية والاجتماعية عظيمة الى درجة ان مسألة « الحلفاء » تصبح مسألة جدّ ثانوية ، فإن ضرورة وجود منظمة طليعة منفصلة تبقى قائمة في شروط « ثورة بروليتاريا صرفة » بفعل التمايزات داخل البروليتاريا .

ووحدها التشديدات حيناً على هذا الشكل وحيناً آخر على ذاك ، من بين الأشكال المختلفة التي تعبر هذه الوحدة عن نفسها عبرها ، قد خضعت لتبدلات مستمرة .

إن الانتهازية والعصبوية ، منظوراً إليهما كموقفين إيديولوجيين ، جذرهما النظري في تحديد غير جدلي للذات الثورية . يرى الانتهازيون أن **العامل العادي** هو الذات الثورية . إنهم محمولون على تقليد مسبقاته بخنوع ، على «تأمل دبره بورع ديني» حسب تعبير بليخانوف . إذا كان العامل يهتم بصورة رئيسية بالمسائل الداخلية في المصنع ، فإن الانتهازي يُصبح «نقابياً على وجه الحصر» . إذا جرفت العمال زوبعة الحمى الوطنية ، يصبح الانتهازي اشتراكياً ـ وطنياً أو اشتراكياً ـ امبريالياً . إذا استسلم العمال لدعاية «الحرب الباردة» ، يصبح فارسها : «إن الجماهير على حق باستمرار» . ان التعبير الأكثر دعوة للرثاء عن هذه الانتهازية يتجلى في واقع ان البرنامج ـ حتى الانتخابي ـ لم يعد مرتكزاً على تحليل علمي للمجتمع ، لكن على تحقيقات عن الرأي العام . لحسن الحظ فإن الحالة النفسية للجماهير لا تدوم . فإذا كان العمال لا يهتمون اليوم إلاّ بالأمور الداخلية للمصنع ، فهم سوف ينزلون غداً الى الشارع في تظاهرات سياسية . اليوم هم «مع» الدفاع عن الوطن الامبريالي ضد «العدو الخارجي» وغداً سيقرفون من الحرب ويرون العدو

الرئيسي في الطبقة المسيطرة في بلادهم . اليوم يقبلون سلبياً بالـ «عمل المتفق عليه»، وغداً سيشهرون الاضراب «البري» ضده . ولأن الأمور هكذا ، فإن منطق الانتهازية يقود إلى ما يلي : بعد القيام ، في مرحلة أولى ، بتبرير الاندماج بالمجتمع البورجوازي بـ «سلوك الجماهير»، يمكن الانقلاب عليه منذ تبدأ تلك الجماهير تتحرك ضد ذلك المجتمع .

أما العصبويون فيختزلون الذات الثورية تماماً كما يفعل الانتهازيون ، لكن في الاتجاه المعاكس . ففي حين لا يهم الانتهازي إلاّ العامل العادي . أي ذلك الذي يتكيف مع الشروط البورجوازية عن طريق استبطانها ، فإن العصبوي ، من جهته ، لا يريد ان يرى إلاّ البروليتاري «المثالي»، ذلك الذي يتصرف كثوري . إن العامل الذي لا يتصرف كثوري يتوقف آلياً عن أن يكون ذاتاً ثورية ؛ يصبح «بورجوازياً». في الحد الأقصى ، إن بعض العصبويين كما على سبيل المثال بعض العفويين أقصى اليسار ، بعض الستالينيين وبعض الماويين - مستعدون حتى لمماثلة الطبقة العاملة بالطبقة الرأسمالية حالما ترفض الموافقة كلياً على ايديولوجيا بدعتهم[٥٤] .

---

(٥٤) أبلغ مثال على ذلك الماويون الصينيون حين يسمون جناحاً من حزبهم (وأكثرية لجنتهم المركزية التي قادت الثورة الصينية الى النصر) «ممثلي الخط الرأسمالي» لا بل بكل بساطة «رأسماليين». بالنسبة للبورديجيين =

ان الموضوعية القصوى - «كل ما يفعله العمال ثوري» - والذاتوية القصوى - «وحده الذي يوافق على مذهبنا هو ثوري» - (أو بروليتاري) تلتقيان في التحليل الأخير حين تنكران الطابع الثوري موضوعياً للنضالات الاجتماعية والسياسية التي تخوضها

= الايطاليين ، لا علاقة للأضراب العام في ١٤ تموز ١٩٤٨ بنضال الطبقة البروليتارية لأن الشغيلة كانوا يضربون من أجل الدفاع عن القائد التحريفي توغلياتي . انظر كذلك الصيغة الجميلة للعفوي دنيز أوتييه : « عندما لا تكون البروليتاريا ثورية ، فهي غير موجودة ، ولا يمكن ان يفعل الثوريون شيئا معها . ليسوا هم الذين يقدرون، وهم يلعبون دور مثقفي الشعب، ان يخلقوا الوضع التاريخي «الذي تصبح فيه البروليتاريا ما هي»، لكن تطور المجتمع الحديث بالذات» (مقدمة لليون تروتسكي ، « تقرير من الوفد السيبيري » باريس ١٩٧٠ ص ١٢). يظهر هذا الاستشهاد كذلك كم العلاقة وثيقة بين الموضوعية والذاتوية القصويين . خلف القناع أقصى اليسار ، نرى « العفويين » المشهورين كارل كاوتسكي واوتا باور يوافقان كلياً ويصفقان : وكيف نفسر أن البروليتاريا ، رغم نضالات عملاقة ، لم تنتصر ؟ « إنها غلطة الظروف ، إذ لم تكن الشروط ناضجة » . نرى بوضوح إلى أي خلاصات مضحكة تؤدي هذه الجبرية القصوى وهذه الحتمية الآلية ، حين علينا ان نفسر بـ «تطور المجتمع الحديث بالذات » لماذا في لحظة معينة اختارت اكثرية شغيلة المؤسسة أ. أو المدينة ب . ديكتاتورية البروليتاريا ووقفت ضد الاصلاحية ، بينما لم يفعل ذلك شغيلة المؤسسة ج . أو المدينة د . مع ذلك فإن نجاح الثورة او فشلها يتوقف على هذه المسألة ، طالما «تطور المجتمع الحديث بالذات» لا يسقط كثمرة ناضجة كل المؤسسات وكل المدن في حضن الثورة ، فعلى هؤلاء السادة «مثقفي الشعب » أن يمتنعوا عن استعمال العنف مع « التطور » وأن يكسبوا الى جانبهم شغيلة د . . .

جماهير درجة وعيها متناقضة . بالنسبة للموضوعيين الانتهازيين ليست تلك النضالات ثورية ، لأن «الأكثرية سوف تقترع في الشهر القادم لمصلحة الحزب الاشتراكي الألماني (أو ديغول)» . أما بالنسبة للذاتويين العصبويين فلا علاقة لها بالثورة «لأن الفريق الثوري (أي فريقنا !) ما يزال جد ضعيف» .

ليس صعباً ان نكتشف الأصل الاجتماعي لهذين الاتجاهين . إنه يتناسب مع المثقفين البورجوازيين الصغار - يمثل الانتهازيون بينهم عموماً المثقفين المرتبطين بالبيروقراطية العمالية في المنظمات الجماهيرية أو في جهاز الدولة البورجوازي ، بينما يمثل العصبويون بالمقابل المثقفين المنحّين أو التأمليين الصرفين والمقطوعين عن الحركة الحقيقية[٥٥] . في الحالتين ، فإن هذا التفكيك للعنصرين الموضوعي والذاتي في الوحدة المتناقضة للذات الثورية يعيد في الواقع الشقاق القديم بين النظرية والممارسة ، وهذا الشقاق لا يمكن ان يقود بدوره إلّا إلى ممارسة انتهازية وإلى «نظرية» لا تفعل غير إعادة انتاج «وعيهم المزيف» على المستوى الايديولوجي .

(٥٥) إن بانكوك وبورديغا هما مثلان جيدان على هؤلاء المثقفين التأمليين الصرفين الذين كتبوا مساء ، وعلى امتداد عشرات السنين ، كتاباتهم الثورية ، مشتغلين في النهار فلكيين او مهندسي جسور . إنهما مثلان مدهشان على التأثير المدمر الذي تمارسه قسمة العمل على قدرة حتى المثقفين الأكثر نفاذ ذهن على انتاج نظرية مناسبة عن مجمل الواقع الاجتماعي .

إنه في الواقع لغريب أن يكون الكثير من الانتهازيين (ومن بينهم البيروقراطية النقابية) والكثير من المثقفين العصبويين يأخذون بالضبط على الماركسيين الثوريين كونهم مثقفين بورجوازيين صغاراً يريدون أن «يخضعوا» الطبقة العاملة[٥٦]. تلعب هذه المسألة كذلك دوراً كبيراً في النقاشات التي تدور داخل الحركة الطلابية الثورية ، هذا هو السبب في أنه يبدو مفيداً ان نناقش بصورة أدق ما هو الفهم السوسيولوجي للنزعة البيرقراطية ، وللنزعة الاقتصادية والعفوية (كما للنزعة الحرفية في مسألة التنظيم) .

إن العمل الفكري والعمل اليدوي ، التراكم والانتاج تتلاقى في نقاط عدة من المجتمع البورجوازي ، وإن على مستويات مختلفة ، مثلاً في المصنع . إن ما يلخصه المفهوم العام للـ «مثقفين» ، للـ «بورجوازية الصغيرة المثقفة» أو للـ «مثقفين التقنيين» ، يدل في الواقع على عدة نشاطات في نموذج مختلف ، علاقاتها بالنضال الطبقي الفعلي متمايزة جداً . يمكن ان نميز بصورة رئيسية المجموعات التالية (لا ندعي بهذا التصنيف بلوغ تحليل شامل) :

(١) الوسطاء بحصر المعنى بين الرأسمال والعمل في سيرورة

---

(٥٦) هذا المأخذ على لينين واللينينيين سبق وطرحه الاقتصاديون الروس ، ويطرحه اليوم العفويون .

الانتاج ، أي «ضباط صف» الرأسمال : الوكلاء والكوادر الآخرون في المؤسسة الذين مهمتهم هي الحرص على انضباط العمل لمصلحة رأسمال المؤسسة .

(٢) الوسطاء بن العلم والتقنية ، كما بين التقنية والانتاج : مِخبريون ، مساعدون علميون ، باحثون تكنولوجيون ، تقنيو المشاريع ، رسامون ، الخ . بعكس الفئة (١) لا تجعل هذه الشرائح من نفسها دعامة لامتلاك فائض القيمة ؛ إنها تساهم في السيرورة المادية للإنتاج وهي انطلاقاً من ذلك أغلب الأحيان ليست مستغلة بل منتجة لفائض القيمة .

(٣) الوسطاء بين الانتاج وتحقيق فائض القيمة : مختصون في الإعلان ، معاهد دراسات للسوق ، علميون يشتغلون في قطاع التوزيع ، إختصاصيون في التسويق ، الخ .

(٤) الوسطاء بين شاري وبائعي السلعة التي تشكلها قوة العمل . نجد هنا في رأس القائمة الموظفين النقابيين وبالمعنى الأوسع ، كل موظفي المنظمات الجماهيرية المبقرطة في الحركة العمالية .

(٥) الوسطاء بين الرأسمال والعمل في فلك البنية الفوقية ، المنتجون الإيديولوجيون (أي اولئك الذين يقوم عملهم على

إنتاج الايديولوجيات) : قسم من السياسيين البورجوازيين («مكونو الرأي العام») ، أساتذة بورجوازيون في «العلوم الانسانية» ، كما يسمونهم ، الصحفيون ، قسم من الفنانين ، الخ .

(٦) الوسطاء بين العلم والطبقة العاملة ، المنتجون النظريون ، أي المثقفون الذين ينتقدون النظام البورجوازي في كل حقول العلوم الطبيعية والاجتماعية التي ليست مرتبطة مباشرة بالممارسة (تضم هذه الفئة كذلك قسماً من الفنانين) .

ويمكن إضافة مجموعة سابعة ، تشملها في الواقع بشكل جزئي كل من المجموعتين الخامسة والسادسة . ففي المجتمعات البورجوازية الكلاسيكية المستقرة ، يقع التدريس ، كمهنة ، ضمن الفئة الخامسة ، بسبب سيادة الايديولوجية البرجوازية ، وبسبب الميزة الايديولوجية والمطلقة لكل انواع التدريس المحترف . إلّا انه مع نمو الأزمة البنيوية في الثانويات والجامعات الرأسمالية الجديدة ، فان تغييراً يحصل في معاييرها الموضوعية . فمن جهة اولى ، تقود أزمة الرأسمالية العامة الى ترسيب أزمة عامة في ايديولوجية الرأسمالية الجديدة تثار في وجهها التساؤلات بشكل متزايد ، ومن جهة اخرى ، فان التعليم لا يقوم بتلقين المبادىء الايديولوجية المطلقة ، بقدر ما يقوم بدور الإعداد

التكنوقراطي للمثقفين المستقلين (المنتمين الى الفئتين ٢ و٣)، لكي يتم استيعابهم في عملية الانتاج . وهذا ما يجعل من الممكن لمثل هذا التعليم ان يرتبط اكثر فأكثر بالتغريب الفردي الذي يعاد ادراكه ، بالإضافة الى النقد الاجتماعي في مجالات متعلقة به (وحتى للنقد الاجتماعي بشكل عام).

ليس صعباً أن نحدد أي قسم من المثقفين يمارس تأثيراً سلبياً على تطور الوعي الطبقي للبروليتاريا : إنهم قبل كل شيء المجموعات (٣) ، (٤) ، (٥) (ليست المجموعة (١) مأخوذة بالاعتبار ، لأنها تقف في كل حال بعيداً عن المنظمات العمالية). إن الأخطر بالنسبة للنشاط الذاتي للبروليتاريا ، ولوعيها المستقل ، هو الاتحاد الوثيق او الاندغام بين المجموعتين (٤) و (٥) ، كما حصل على مستوى كبير منذ الحرب العالمية الأولى في الأحزاب الاشتراكية ـ الديموقراطية وبصورة جزئية كذلك في الأحزاب الشيوعية المنحازة الى موسكو .

بالمقابل لا يمكن للمجموعتين (٢) و (٦) إلا أن تساهما في تقوية البروليتاريا والمنظمات الثورية ، **لأنهما تقدمان لها المعارف التي لا غنى عنها لنقد المجتمع البورجوازي ولنجاح عملية قلب المجتمع هذا . باختصار : لاستعادة وسائل الانتاج على يدي المنتجين المتشاركين .**

إن اولئك الذين ينفجرون مهددين في وجه التضامن

المتنامي بين مجموعات الشغيلة وفئتي المثقفين (٢) و (٦) يساعدون إذن الفئات (٣) و (٤) و (٥) على تدعيم تأثيرها السلبي على البروليتاريا . لأن الصراعات الطبقية مضاعفة على الدوام بمنازعات ايديولوجية[٥٧] . إنه لفي أقصى الأهمية إذن أن نوضح أي ايديولوجية تنمو داخل البروليتاريا ، إذا كنا سنرى نمو ايديولوجية بورجوازية صغيرة او حتى بورجوازية ، أو النظرية الماركسية . إن من يعارض «كل تأثير فكري من الخارج» على البروليتاريا ، ينسى أو يتناسى واقع ان التأثير الذي تمارسه المجموعات ٣ و ٤ و ٥ يفعل **باستمرار** في البروليتاريا عن طريق المجتمع البورجوازي والاقتصاد الرأسمالي ، وان «العفويين» اليساريين لا يمتلكون اي دواء عجائبي لإبعاد تأثير المثقفين البورجوازيين هذا . فالتهجم على نفوذ المثقفين الماركسيين داخل الطبقة العاملة يعني ببساطة السماح لنفوذ المثقفين البورجوازيين بالانتشار من دون ما يعترضه[٥٨] . أكثر من ذلك : عبر معارضة تطوير منظمة ثورية وتثقيف ثوريين بروليتاريين محترفين ، يساهم المناشفة و «العفويون» موضوعياً في تأبيد قسمة العمل بين عمل

---

(٥٧) انظر في هذا الصدد ن . بولنتزاس : « السلطة السياسية والطبقات الاجتماعية » .

(٥٨) انه لمثير للاهتمام أن نلاحظ انه كان هناك مثقفون اكثر ، وحتى مثقفون ثوريون محترفون ، لدى المناشفة مما لدى البلاشفة بعد انشقاق الاشتراكية - الديمقراطية الروسية . انظر دافيد لاين ،المرجع المذكورسابقاً ص ٤٧ ، ٥٠ .

يدوي وعمل ذهني ، أي في التبعية الفكرية للشغيلة إزاء المثقفين وفي بقرطة المنظمات العمالية . ذلك ان العامل المشدود باستمرار الى مركز عمله في سيرورة الانتاج الرأسمالي ، يبقى تابعاً على الدوام «للاختصاصيين البورجوازيين الصغار» . بالمقابل ، فبمساعدة منظمة ثورية يصبح ممكناً ، عن طريق اخراج العمال مؤقتاً من المصانع ، خطو خطوة حاسمة نحو التحرر الفكري على الأقل للشغيلة المتقدمين والبدء وإن جنينياً بالغاء قسمة العمل داخل الحركة العمالية بالذات .

هذه الملاحظات لا تستنفد مع ذلك مشكلة سوسيولوجية العفوية . ينبغي أن نطرح على أنفسنا السؤال التالي : في أي شريحة من البروليتاريا يشتد اكثر الحذر من المثقفين ؟ طبعاً في الشرائح التي تتعرض بفعل وضعها الاجتماعي ـ الاقتصادي أكثر من غيرها إلى نزاعات مع العمل الذهني ، قبل كل شيء إذن لدى عمال المشاريع الصغيرة والمتوسطة التي يهددها التقدم التقني ، لدى اولئك العصاميين الذين خرجوا من وضع الجمهور الواسع بجهدهم الشخصي ، ولدى العمال الذين ارتفعوا الى قمة المنظمات البيروقراطية . بتعابير اخرى ، ان القاعدة الاجتماعية للنزعة الاقتصادية والعفوية والبيروقراطية وللعداء للمثقفين داخل الطبقة العاملة مكونة من العمال اليدويين و «الحرفيين» وليس من بروليتاريا المشاريع الكبرى ، والمدن

الكبرى والفروع الصناعية التي في حالة توسع . هذه الشرائح كانت كذلك دعامات الاشتراكية ـ الديمقراطية الأكثرية في السنوات الحاسمة للثورة الألمانية ما بين ١٩١٩ و ١٩٢٣ .

مُن جهة اخرى ، وبين عمال المصانع والمدن الكبرى ، وعمال الفروع الصناعية الأكثر تقدماً تكنولوجياً ، فعبر التعطش للمعرفة ، والاطلاع الأوسع على العمليات التقنية والعلمية ، وفي مواجهة الوقاحة الكبرى في التمرس بمبدأ غلبة القوة سواء في المصنع او في الدولة ، يجد العمال انفسهم أكثر قابلية لفهم الضرورة الموضوعية لدور المنظرين الثوريين ودور التنظيم الثوري .

تولد الاتجاهات العفوية للحركة العمالية غالباً ، لكن ليس دائماً ، على هذه القاعدة الاجتماعية . كان هذا صحيحاً خصوصاً بالنسبة للنقابية ـ الفوضوية في البلدان اللاتينية قبل الحرب العالمية الأولى ، كما بالنسبة للمنشفية التي كانت تتخطاها البلشفية كلياً في المشاريع المدينية الكبرى ، لكن التي كانت تجد دعامتها البروليتارية في المدن الصغيرة بالمناطق المنجمية والنفطية جنوبي روسيا[٥٩] . إن كل المحاولات اليوم لإحياء هذه الايديولوجية «العمالوية»، في عصر الثورة الصناعية الثالثة ،

(٥٩) دافيد لاين (ص ٢١٢ ـ ٢١٣) يشير وهو مصيب الى تفوق البلاشفة في المدن المطبوعة بالمشاريع الكبرى وبطبقة عاملة قديمة مثبتة .

بحجة «الاستقلال العمالي» لن تفعل غير تشتيت قوى البروليتاريا المتقدمة ، الثورية بالقوة ، تماماً كما كان يحصل في الماضي ، وسوف تشجع المجموعات المتخلفة ، نصف الحرفية والمبقرطة في الحركة العمالية ، التي تتلقى تأثير الايديولوجيا البورجوازية .

المثقفون العلميون
العلم الاجتماعي والوعي الطبقي البروليتاري

إن إعادة الادخال الكثيفة للعمل الذهني في سيرورة الإنتاج التي ولدتها الثورة الصناعية الثالثة ، التي توقعها ماركس والتي تمد جذورها في الثورة الصناعية الثانية[٦٠]، قد خلقت

---

(٦٠) إن هانس جورغن كراهل ، في عمله الأخير :
(Zum allgemeinen Verhaltnis von wissenschaft licher — intelligenz und proletrarischen Klassenbe Wusstsein SDS — info N° 26 — 27 (Des, 22, 1969).
قد أعطى « الـ » استشهاد بماركس حول هذا الموضوع، الذي ننقله هنا (وهو جزء من المقطع الذي لم يرد في النص النهائي من الفصل الأول في المجلد الأول من كتاب « الرأسمال »، « الفصل السادس : نتائج عملية الانتاج غير المباشر » الذي نشر للمرة الأولى عام ١٩٣٣ في « أرشيفات ماركس ـ انجلز » باللغة الروسية) : « إن الموظف الحقيقي في مجمل سيرورة العمل ، ومع تطور تصنيف حقيقي للعمل في ظل الرأسمال (او في نمط الانتاج الرأسمالي بصورة خاصة) ليس العامل المعزول، بل يصبح اكثر =

الشروط الاجتماعية لوعي جديد ، لدى قسم كبير من المثقفين العلميين ، لاستلابهم الخاص بهم ، الذي يخضعون له كأي كان في المجتمع الرأسمالي ، لكن الذي كانوا قد توقفوا عن الشعور به حين تم استبعادهم من سيرورة الانتاج المباشر لفائض القيمة فتحولوا الى مستهلكين مباشرين أو غير مباشرين لها . هذه التغيرات تشكل القاعدة المادية ليس فقط للتمردات الطلابية في البلدان الامبريالية بل كذلك لتنامي عدد العلميين والتقنيين الذبن أصبح ممكناً دمجهم في الحركة الثورية .

قبل الحرب العالمية الأولى ، كانت مساهمة المثقفين في الحركة الاشتراكية الكلاسيكية ، تتبع عموماً خطاً منحنياً متناقصاً : وإذا كانت ضخمة في البدء فهي قد ضاقت كلما توطدت الحركة الجماهيرية للطبقة العاملة . عام ١٩١٠ ، وفي محاجة غير مشهورة ضد ماكس أدلر ، أبرز تروتسكي الخطوط

= فأكثر طاقة عمل مركبة اجتماعيا ، وان طاقات العمل المختلفة التي تتزاحم وتكون الآلة الانتاجية ككل ، تساهم بطرق مختلفة في العملية المباشرة لانتاج السلع أو بالأحرى المنتجات ـ بحيث يشتغل هذا اكثر بيديه ، وذاك اكثر برأسه ، هذا كمدير اعمال ، او كمهندس ، والآخر كشغيل يدوي مباشر او كعامل يدوي بسيط . نتيجة لذلك ، فإن وظائف طاقة العمل تتجه اكثر فأكثر ليصنفها المفهوم المباشر للعمل المنتج ، فيما سيصنف من يمتلكون هذه الطاقة ضمن مفهوم الشغيلة المنتجين ، الذين يستغلهم الرأسمال مباشرة ويخضعون لعملياته الاستهلاكية والانتاجية» . (كارل ماركس «النتائج **Resullate** » فرانكفورت ١٩٦٩ ص ٦٦) .

العريضة لتحليل ماركسي عن بدايات هذا التطور : التبعية الاجتماعية المتنامية للمثقفين حيال البورجوازية الكبرى والدولة البورجوازية ؛ عجز الحركة العمالية ، المنظمة في «مجتمع - مضاد» ، عن مواجهة المجتمع البورجوازي بخيار معادل . كان تروتسكي يتنبأ بأن هذا الوضع سيتعدل على الأرجح بصورة سريعة في المرحلة الثورية ، عشية الثورة البروليتارية[٦١] .

إلّا أنه كان بدأ يستخلص من مقدمات صحيحة خلاصات تكتيكية خاطئة ، مهملاً مثلاً بعكس لينين انبعاث الحركة الطلابية حوالي ١٩٠٨ - ١٩٠٩ في عز انتصار الثورة المضادة ، الذي كان يرى فيه لينين مؤشراً سابقاً للصعود اللاحق للحركة الجماهيرية الثورية (التي لم تنفجر إلّا عام ١٩١٢) . توصل تروتسكي حتى الى الاعتقاد أنه كان «خطأ» المثقفين الثوريين القادة في الاشتراكية - الديمقراطية الروسية إذا كان يمكن ان تنتشر داخلها « كل خصوصياتهم الاجتماعية : الروح العصبوية ، الفردوية الثقافية ، التيمية الايديولوجية »[٦٢] . كان إذ ذاك يبخس، كما اعترف فيما بعد ، تقدير **الأهمية السياسية - الاجتماعية** لصراع الأجنحة بين البلاشفة والمصفين ، الذي لم

---

(٦١) ليون تروتسكي ، الانتلجنسيا والاشتراكية ، (لندن ، ١٩٦٦).

(٦٢) ليون تروتسكي Die Entwicklunggsdengen der russischen Sozial-democratie, in Die Neue Zeit, ج ١٨، رقم ٢(١٩١٠)، ص ٨٦٢.

يكن يفعل غير تشكيل امتداد للصراع السابق بين البلاشفة والمناشفة . إن التاريخ قد كشف ان هذا الصراع لم يكن بنتاج « لعصبوية المثقفين » بل للفصل بين وعي اشتراكي ثوري وبورجوازية صغيرة إصلاحية(٦٣) .

إلّا أنه صحيح أن مساهمة المثقفين الثوريين الروس في بناء الحزب الثوري للبروليتاريا الروسية تحققت انطلاقاً من اختيار فردي على وجه الحصر ودون جذور اجتماعية عميقة . وقد انعكس ذلك (وكان سينعكس) بصورة حتمية ، بعد اوكتوبر ، ضد الثورة البروليتارية لأن جمهور المثقفين التقنيين لم يكن قادراً على الانتقال الى معسكر الثورة ، لأنهم خربوا في البدء جهاز الإنتاج الاقتصادي وجهاز التنظيم الاجتماعي ، بحيث انتهى ذلك «بشراء» تعاونهم بأجور مرتفعة ، وبتحولهم أخيراً الى محركين لبقرطة هذه الثورة وانحطاطها .

---

(٦٣) سبق لتروتسكي في كتابه السجالي الأول ضد لينين (مهامنا السياسة ص ٦٨ - ٧١) ان بذل جهداً لتصوير مجمل سجال لينين ضد النزعة « الاقتصادية » و «التصور الحرفي للتنظيم » في «ما العمل؟ » على انه مجرد نقاش بين مثقفين او في احسن الأحوال محاولة لكسب افضل قوى المثقفين البرجوازيين الصغار الى الاشتراكية الديموقراطية الثورية . فلم يفهم تروتسكي ان الأمر كان يتعلق بالتصدي للنفوذ البرجوازي الصغير التحريفي على الطبقة العاملة. وقد تميّز سجاله ضد لينين منذ عام ١٩٠٣ حتى عام ١٩١٤ بسوء تقدير لنتائج الانتهازية الكارثية بالنسبة للطبقة العاملة والحركة العمالية ولم يتخط نهائيا سوء التقدير هذا الا في عام ١٩١٧ .

بما أن مكانة المثقفين التقنيين في سيرورة الانتاج المادي ـ قبل كل شيء من هم من الفئة ٢ المشار اليها أعلاه ـ تعدلت بصورة حاسمة ، وبما أن المثقفين التقنيين كانوا يصبحون تدريجياً جزءاً لا يتجزأ من الطبقة المأجورة ، فإن مساهمتهم في السيرورة الثورية وفي بناء مجتمع جديد هي اليوم اكثر احتمالاً بكثير مما في الماضي . سبق وأوضح فريدريك انجلز دورهم التاريخي الحاسم : «لكي نتملك وسائل الانتاج ونستثمرها ، نحتاج الى جمهور من الناس المعدين تقنياً . ليسوا في متناولنا (. . .) أتوقع أننا سنجند في الثماني الى العشر سنوات القادمة ، ما يكفي من التقنيين الشباب الأطباء ورجال القانون والمدرسين لنستطيع إدارة المعامل والملكيات الكبرى بواسطة رفاق في الحزب ، لمصلحة الأمة . يصبح وصولنا إذ ذاك الى السلطة جد طبيعي ويجري ـ نسبياً ـ دون صعوبات . إذا بالمقابل ، وبسبب حرب ، وصلنا باكراً الى السلطة ، يصبح هؤلاء التقنيون عند ذلك أعداءنا الرئيسيين ، يخدعوننا ويخونوننا ما أن يتم لهم ذلك . سوف يتحتم علينا أن نستخدم ضدهم الإرهاب»(٦٤) . كانت تلك نبوءة مأساوية عما حصل فعلاً في روسيا فيما بعد .

ينبغي بالطبع ان نضيف أن البروليتاريا أصبحت خلال الثورة الصناعية الثالثة أمهر بكثير جداً وأنها تبرهن عن طاقات

---

(٦٤) أوغست بيبل : « مراسلات مع فريدرك انجلس »، ١٩٦٥ ، ص ٤٦٥ .

على ادارة المعامل اكبر بكثير مما في أيام انجلز . لكن قدرة الرقابة السياسية ـ الاجتماعية للجماهير العريضة على «الاختصاصيين» (وهي قدرة كان ينسج لينين حولها الكثير من الأوهام عام ١٩١٨) تتطلب كذلك قدرات تقنية . ان الاندغام المتنامي بين المثقفين التقنيين والبروليتاريا الصناعية والمساهمة المتنامية للمثقفين الثوريين في الحزب الثوري لا يمكن إلا أن يسهلا سيرورة الرقابة تلك .

كلما ازداد التناقض بين التشريك الموضوعي للانتاج والعمل من جهة والتملك الفردي من جهة اخرى (أي أزمة علاقات الانتاج الرأسمالية) ـ ونحن الآن نجرب شكلاً جديداً وحاداً لهذا التناقض تعطينا صورة عنه احداث ٨ أيار ١٩٦٨ في فرنسا والنضالات الجماهيرية في ايطاليا عام ١٩٦٩ ـ كلما حاولت الرأسمالية الجديدة ان تؤخر ساعة موتها عبر رفع مستوى استهلاك البروليتاريا ، كلما اصبح العلم اكثر فأكثر قوة انتاج ثورية في وجهتين : إنه ليس فقط يُنتج ، عبر الأتمتة والمراكمة المتنامية للسلع ، أزمة على مستوى سيرورة الانتاج وتحقيق الرأسمال المرتكزة الى انتاج السلع المعمَّم ، بل هو يُنمي كذلك الوعي الثوري . باختصار : هو يسمح بتمزيق المظاهر المزيَّفة للواقع الرأسمالي اليومي . إن دور كشف الزيف الذي تلعبه العلوم الاجتماعية النقدية يمكن ان يمارس وظيفة ثورية حقاً في

يقظة الوعي الطبقي ، وذلك بالضبط لأن الحاجز الرئيسي الذي يمنع اليوم نمو وعي طبقي سياسي لدى الطبقة العاملة يكمن في واقع أنها خاضعة باستمرار لتأثيرات الإيديولوجيات والتزييفات البورجوازية الصغيرة والبورجوازية أكثر بكثير مما في بؤسها أو الضيق المفرط لأفقها الحيوي . إن هذا الدور يتطلب مع ذلك توسطاً ملموساً مع البروليتاريا ، لا يمكن ان يحققه إلا الشغيلة المتقدمون من جهة والمنظمة الثورية من جهة أخرى . وهذا يفترض مسبقاً بالمقابل ألا يضع المثقفون العلميون أنفسهم ، من موقع المازوشيين المتواضعين ، في «خدمة الشعب» لدعم نضالاته على صعيد الأجور ، بل ان يحملوا الى الشغيلة النقديين المعارف العلمية الضرورية التي لا يمكن لهؤلاء ان يكسبوها على قاعدة وعيهم المجزأ ، والتي تسمح لهم بفهم الاستغلال المقنَّع والسيطرة المستورة والنفاذ إليهما بكل ما ينطويان عليه من معنى .

التربية التاريخية وتكوّن الوعي الطبقي

إذا فهمنا أن نظرية التنظيم اللينينية تحاول إعطاء جواب على مسألة حالية الثورة والذات الثورية ندرك كذلك الصلة بين هذه النظرية ومهمة تربية تاريخية : هي مشكلة تحويل الوعي الطبقي الكامن ، التريديونيوني الى وعي طبقي حقيقي ،

سياسي وثوري . لا يمكن حل هذه المشكلة إلا على ضوء تفريع الطبقة العاملة المحدد أعلاه ـ جمهور الشغيلة ، الشغيلة المتقدمين ، الكوادر الثورية المنظمة . لبلوغ الوعي الطبقي ، تحتاج كل شريحة الى تربية خاصة بها ، وتتبع سيرورة تكوينها الخاصة بها ، وتشترط شكلاً خاصاً من الاتصال بالطبقة وبالإنتاج النظري . يمكن تلخيص الدور التاريخي للحزب الثوري الطليعي الذي تصوره لينين بتمفصل صيغ التربية الثلاث تلك .

لا تتعلم الجماهير العريضة إلّا عبر العمل : إن إرادة «تلقينها» الوعي الثوري عبر الدعاية تبقى دون فعالية ودون أفق . لكن وإن كانت الجماهير لا تتعلم إلّا عبر العمل ، فإنه ما كل عمل يسمح بالضرورة بتنمية جماعية لوعي طبقي ثوري . إن أعمالاً تتناول أهدافاً اقتصادية وسياسية تبغي تحقيقها مباشرة ويمكن بلوغها في إطار النظام الاجتماعي الرأسمالي لا تخلق وعياً طبقياً ثورياً . كان ذلك أحد الأوهام الكبرى للاشتراكيين ـ الديمقراطيين «المتفائلين» ومن بينهم انجلس في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين الذين كانوا يعتقدون ان نجاحات جزئية في الحملات الانتخابية وفي الاضرابات قد تفتح طريقاً واسعة لتطور وعي طبقي ثوري ولتدعيم روح القتال

عملياً في توطيد وعي الذات وإرادة النضال لدى البروليتاريا(٦٥) (كان الفوضويون مخطئين عندما كانوا يرفضون هذه النضالات الجزئية بصورة جازمة) ، لكنها لم تكن تهيىء العمال للنضالات الثورية . ان افتقار الطبقة العاملة الألمانية للخبرة في النضالات الثورية من جهة ، ووجود مثل هذه الخبرة لدى الطبقة العاملة الروسية ، من جهة اخرى ، كان الفارق الأكثر أهمية بين وعي الطبقتين عشية اندلاع الحرب العالمية الأولى . وقد ساهم هذا الفارق بشكل حاسم في النتائج المتباينة لثورتي ١٩١٧ ـ ١٩١٩ في كل من روسيا وألمانيا . وبما ان هدف الأعمال الجماهيرية عموماً هو إرضاء الحاجات المباشر ، يهم ان تربط الاستراتيجية الثورية بتلك الحاجات مطالب لم يعد بالإمكان دمجها بالنظام الاجتماعي الرأسمالي وتفجر دينامية ثورية تؤدي الى امتحان

---

(٦٥) لم تظهر لهم إشكالية الثورة إلا في ردة الفعل الضرورية على الغاء محتمل لحق الانتخاب العام وفي حالة الحرب . حاولت روزا لكسمبورغ بالمقابل بنظريتها حول الأضراب الجماهيري أن تطور اشكال نضال للبروليتاريا تقطع مع النضالات الانتخابية والأجورية وتستند الى ثورة ١٩٠٥ الروسية .

وحتى اليوم يحاول ليليو باسو في تحليل مثير للاهتمام عن ديالكتيك الثورة لدى روزا لوكسمبورغ (فرانكفورت ١٩٦٩ ، ص ٨٢ ـ ٨٣) ان يعرض ، كخلاصة لاستراتيجية لوكسمبورغ ، حلاً وسطاً معتدلاً بين النضالات اليومية والأهداف النهائية ، ينحصر في جعل تناقضات التطور الموضوعي إكثر حدة . ولا داع لأن نشرح بالتفصيل هنا حقيقة ان المعنى الأعمق لاستراتيجية الاضرابات الجماهيرية قد فاتته .

القوة بين الطبقتين الحاسمتين في المجتمع . تلك هي استراتيجية الحلول الانتقالية التي ادخلها لينين بصورة صريحة الى المؤتمر الرابع في برنامج الأممية الشيوعية والتي استعادها تروتسكي كجزء أساسي في برنامج الأممية الرابعة(٦٦) .

لا يمكن تطوير الوعي الطبقي الثوري إلّا إذا راكمت الجماهير تجارب نضال لا تقتصر على المطالب الجزئية ، الممكنة التحقيق في إطار النظام الرأسمالي . إن إدخال هذه المطالب في نضالات كبرى لا يمكن ان ينجح إلا بفضل الشغيلة المتقدمين الذين يوصلون ، وينشرون ويجربون في المؤسسة ، في النقابات ، في مجموعات المؤسسات ، اهدافاً سياسية ـ لا تنبثق عفوياً من التجربة اليومية ـ إلى أن تصبح الحالة ناضجة لتصير

---

(٦٦) انظر نقاش برنامج المؤتمر الرابع للأممية الشيوعية (صدر عن الأممية الشيوعية عام ١٩٢٣ ، ص ٤٠٤ ـ ٤٤٨) الذي ينتهي بالتصريح التالي للوفد الروسي ، الذي وقعه لينين ، تروتسكي ، زينوفييف ، راديك وبوخارين : « باعتبار أن الجدال لمعرفة ما يجب أن تكون صياغة المطالب الانتقالية وفي اي قسم من البرنامج ينبغي إدخالها ولد بصورة خاطئة تماماً معارضة مبدئية مزعومة ، فإن الوفد الروسي يثبت بالاجماع ان إدخال المطالب الانتقالية في برنامج الفروع القومية كما صياغتها العامة وتبريرها النظري في القسمُ العام من البرنامج ، لا يمكن اعتباره ضرباً من الانتهازية (المرجع المذكور ص ٥٤٢) . يبدو ان تروتسكي تكهن بهذه الاستراتيجية منذ عام ١٩٠٤ عندما كتب « يقف الحزب عند المستوى المعين لتقصي الوعي البروليتاري . . . ويحاول ان ينزرع في البروليتاريا عن طريق رفع هذا المستوى . . . » .

هذه المطالب ذاتها موضوع إضرابات كبرى وتظاهرات كبرى .

إذا كان الوعي الطبقي للجماهير العريضة لا يتكون إلا عبر تجارب **نضالات ثورية موضوعياً** ، فهو يتشكل لدى الشغيلة المتقدمين عبر تجارب الحياة والعمل ونضال لا ينبغي عموماً أن يكون بالضرورة ثورياً . إنهم يستخلصون الاستنتاجات الضرورية من الصراعات الاجتماعية اليومية ؛ يعترفون بإلحاح حشد القوى ، والعمل الجماعي والتنظيم . إن أنماط وأشكال تلك الأعمال وذاك التنظيم لا يمكن تحديدها إلا من حالة إلى حالة ، وفقاً للشروط الموضوعية والتجارب الملموسة . وهنا بالضبط يتدخل نشاط الطليعة الثورية الذي يسمح للشغيلة المتقدمين باجتياز العتبة التي تفصل تجربة قصور البنى الاجتماعية القائمة عن تحويلها . بديهي أنه لا يمكن للطليعة ان تلعب دور الحفاز Catalyseur هذا ، لا آلياً ولا بالاستقلال عن الشروط الموضوعية ، لكن شريطة أن تكون هي ذاتها على مستوى مهمتها ، ان يكون عمل الإعداد النظري والدعاية ونشر المنشورات الذي تقوم به يتناسب في مضمونه مع حاجات الشغيلة المتقدمين ، ويتفق مع قوانين التربية السياسية (مع تجنب كل قصوية) ويكون في الوقت ذاته مرتبطاً **بالنشاط العملي والآفاق السياسية** التي تسمح بتصديق الاستراتيجية الثورية كما التنظيم الذي ينشرها .

لكن حتى ولو كان نشاط الطليعة الثورية يلبي هذه المتطلبات ، فمن الممكن ان لا يبلغ هدفه إذا كنا في فترة جزر في النضال الطبقي وتراجع في ثقة البروليتاريا بذاتها . اولئك الذين يتخيلون انه يكفي الدفاع عن «تكتيك سليم» و «خط سليم» لكي تتشكل قوة ثورية وتنمو ، كما بصورة عجائبية ، حتى في فترة جزر في النضالات الطبقية ، يفكرون في الواقع كعقلانويين بورجوازيين وليس وفقاً للجدل المادي (ولنقل عابرين إن معظم الانقسامات داخل الحركة الثورية ناجمة عن هذا الوهم) . هذا لا يعني لذلك أن عمل الطليعة الثورية المنجز في ظروف موضوعية غير ملائمة ينبغي ان يبقى دون نجاح لدى الشغيلة المتقدمين . إنه طبعاً لا يلاقي نجاحاً كبيراً مباشراً لكنه عمل إعدادي في غاية الأهمية ، لا بل حاسم ، بالنسبة للفترة التاريخية التي تشهد مواصلة النضال . إن الاعداد الصبور والممل الذي قدمته منظمة الطليعة ، أحياناً خلال أعوام من العمل الصغير اليومي ، يحقق ربائح غنية يوم يعود «القادة الطبيعيون للطبقة»، الذين ما يزالون مترددين ، فيأخذون على عاتقهم فجأة ، إبان إضراب كبير ، أو مظاهرة كبرى ، حل الرقابة العمالية على الانتاج فيجعلون منه موضوع نضالهم[٦٧] . من أجل القدرة على إقناع الشغيلة

---

(٦٧) إن جورج لوكاش («لينين» EDI ، باريس ١٩٦٥) على حق عندما يكتب ان الحزب الثوري اللينيني لا يمكن ان « يقوم » بأي ثورة ، لكن يمكنه مع ذلك ان يسرّع الاتجاهات التي تؤدي إليها . إن الحزب ، مفهوماً بهذه الصورة ، هو =

المتقــدمين والمثقفين الجـذريين لبلد مــا بضـرورة تــوسيـع الصراعات الاجتماعية المهمة وبانتقالهم من مستوى المطالب المبـاشرة الى مستـوى الحلول الانتقاليـة، لا يكفي مع ذلـك المنظمة الثورية الطليعية أن تنسخ باجتهاد قائمة لمطالب كهذه لـدى لينين وتروتسكي . ينبغي لهـا أكثر بكثيـر أن تعرف كيف تمارس تقنية مزدوجة لـلاقتراب من الـواقع وفهمـه. يجب ان تقـوم من جهة بـامتلاك تجـارب النضالات الـطبقيـة الثـوريـة للبروليتاريا العالميـة ، ومن جهة أخـرى ان تكون قـادرة على تحليل الواقع الاجتماعي المعاصر ـ تحليل يسمح بتطبيق قراءة التاريخ على الوضع الحالي المعطى . وفقـاً لنظريـة المعرفـة المـاركسيـة ، إن الممـارسـة هي مقيـاس الامتـلاك النــظري الحقيقي للواقـع الحـاضـر . وهـذا يعني : أن تحليـلاً أمميـاً ماركسياً يفترض مسبقاً ممارسة أممية ، كما أن ممارسة كهـذه تفترض مسبقاً تنظيماً أممياً .

يستحيل ان نحدد بصـورة علمية دقيقـة تناقضـات المجتمع الـرأسمالي الجـديـد الحـالي ـ في العـالم أجمـع أو في بلد واحـد ـ أو التنـاقضات الملمـوسة لتـطور الوعي الـطبقي البروليتـاري ونموذج الصـراع الذي يمكن أن يؤدي الى حـالات ما قبـل ثوريـة دون ان

= منتج الثورة وفي آن معاً ناتجها ، وهذا يعني تخطي التعارض بين كاوتسكي («ينبغي للحزب الجديد ان يهيىء الثورة») وروزا لكسمبورغ («يخلق الحزب الجديد عبر اعمال جماهيرية ثورية») .

نمتلك التجربة التاريخية للحركة العمالية الأممية من ثورة ١٨٤٨ إلى أيامنا هذه . إن التاريخ هو المختبر الوحيد للعلوم الاجتماعية . بدون معرفة دروس التاريخ ، ليس ماركسي اليوم إلا «طالب طب» يرفض الدخول الى غرفة التشريح .

ينبغي ضمن هذا السياق البقاء منتبهين الى واقع أن كل محاولة لـ «تحرير» الحركة الثورية المنبعثة من «انقسامات الماضي» تشهد على عدم فهم كلي للطبيعة الاجتماعية ـ التاريخية للتمايزات داخل الحركة العمالية الأممية . إذا أغضينا عن الجوانب الشخصية والعارضة التي ترافق بصورة حتمية تمايزات كهذه ، يتضح ان المجادلات الكبرى للحركة العمالية الأممية منذ خلق الأممية الأولى ـ المجادلة بين الماركسية والفوضوية ، تلك التي بين البلشفية والمنشفية ، بين الأممية والاشتراكية ـ الوطنية ، بين أنصار ديكتاتورية البروليتاريا وأنصار الديمقراطية البورجوازية ، بين التروتسكية والستالينية ، بين الماوية والخروتشوفية ـ كانت تتناول المسائل الأساسية للثورة ، لاستراتيجية وتكتيك النضال الثوري ، **التي تنبعث من طبيعة الرأسمالية بالذات ، ومن طبيعة البروليتاريا والنضال** البروليتاري . هذا هو السبب في كونها تبقى حالية طالما لم تجد مشكلة تحقيق مجتمع بلا طبقات حلها العملي . ما من «تكتيك» مهما يكن حذراً ، ما من «انفتاح على المساومة» مهما يكن أريحياً ، يمكن أن يمنع ألا تعود هذه المسائل مع الوقت فتنبعث ، دائما من

جديد ، من الممارسة بالذات . إذا تجنبنا هذه المشكلات ، تكون النتيجة الوحيدة هي التالية : بدل تحليلها وحلها علمياً وبصورة مخططة ، يبقى هذا العمل غير منهجي ، صدفوياً ودون توجيهات .

إن امتلاك المادة التاريخية للنظرية الماركسية ضروري بالتأكيد ، لكن فقط من حيث هو خطوة أولى نحو تطوير وعي طبقي ثوري لدى الشغيلة المتقدمين والمثقفين المجذرين . ينبغي فوق ذلك القيام بتحليل منهجي للوقت الراهن ، وإلا فلن تقدم النظرية الأدوات الكفيلة بكشف «الحلقات الضعيفة» في نمط الانتاج وفي المجتمع الرأسمالي الجديد ، وبصياغة الحلول الانتقالية الملائمة (والتربية التي تناسبها) . وحده دمج تحليل نقدي كلي للمجتمع المعاصر برسملة دروس تاريخ الحركة العمالية يمكنه ان يقدم الأدوات الملموسة الضرورية للسيطرة النظرية لمهام طليعة ثورية[٦٨] .

---

(٦٨) إن هانز جورغن كراهل (المرجع المذكور ص ١٣) على حق تماماً حين يأخذ على لوكاش « مثلنته » لمفهوم الوعي الطبقي الكلي البروليتاري ويفضح عجزه عن الربط بين الممارسة والنظرية الذي يصبح عجزاً عن نقل النظرية الثورية الى جمهور الشغيلة . إلّا أنه شكل نواة هذا الفهم . لكن بما أنه يقيم فصلاً واضحاً بين « المصير المستلب للحياة » وسيرورة الانتاج المستلب (بفتح اللام)، يسقط على شاكلة ماركوز، في خطر اعتبار « استلاب المستهلكين » على انه المشكلة المركزية، وبالتالي رؤ ية عائق أمام تطور الوعي الطبقي =

في غياب تجربة نضالات ثورية ، لا تكتسب الجماهير العريضة وعياً طبقياً ثورياً ؛ دون تدخل واع للشغيلة المتقدمين ، يدخلون مطالب انتقالية في نضالات عمالية ، لا تجارب ثورية للجماهير العريضة ؛ دون نشر مطالب انتقالية على يد الطليعة الثورية ، لا إمكانية لدى الشغيلة المتقدمين للتأثير في النضالات الجماهيرية باتجاه معاد للرأسمالية ؛ دون برنامج ثوري ، دون استيعاب لتاريخ الحركة العمالية ، دون تطبيق دروسه على الحاضر ودون برهان عملي على قدرة الطليعة الثورية أن تلعب بنجاح دوراً قيادياً ، على الأقل في بعض القطاعات وفي بعض الحالات ، ليس ثمة إمكانية واحدة لإقناع الشغيلة المتقدمين بأهمية المنظمات الثورية ، إذن ليس ثمة إمكانية واحدة (أو امكانية غير كافية وحسب) تجعل الشغيلة المتقدمين يستوعبون الحلول الانتقالية التي تتناسب مع الوضع الموضوعي : نرى هنا كيف تتداخل العوامل المختلفة وراء تطور الوعي الطبقي وكيف

= البروليتاري في « الكفاية المفرطة في التحضر للحاجات » التي يسمح بها النظام الرأسمالي لجمهور الشغيلة . إلّا ان عقب اخيل نمط الانتاج الرأسمالي يبقى كما في السابق دائرة الاستلاب في سيرورة الانتاج ، هنا ، وهنا فقط ، يمكن لانتفاضة ثورية حقاً أن يكون لها تأثيرها ، كما برهنت احداث فرنسا وإيطاليا . نعثر هكذا من جديد على التمفصل في نقل الوعي الطبقي الذي وصفناه . ونحن هنا لا نريد أن نخلط ـ كما فعل كراهل (وكما فعل لينين وتروتسكي) ـ بين المفهوم الساذج للـ « حزب الذي يعرف كل شيء » وإعداد النظرية الثورية ، المعتبرة كسيرورة إنتاج نوعي ودائم .

تثبت حالية الفهم اللينيني للتنظيم . ان التمفصل بين سيرورة تربية الجماهير عبر العمل ، سيرورة تربية الشغيلة المتقدمين بالتجربة وسيرورة تربية الكادرات الثورية عبر وساطة النظرية والممارسة الثوريتين يشكل وحدة سيرورة بناء الحزبَ الثوري . ان التعلم والتعليم هما هنا في تداخل متواصل ، حتى لدى الكادرات الثورية التي ينبغي أن تصبح قادرة على التخلي عن الغطرسة النظرية .

هذا الفهم قائم على إدراك ان النظرية لا تبرهن على مبرر وجودها إلا في علاقتها بالنضال الطبقي الحقيقي وبقدرتها على تحويل الوعي الطبقي الثوري الكامن لدى الشرائح الواسعة للشغيلة الى وعي طبقي ثوري حقاً .

إن كلمة ماركس المشهورة : يحتاج المربي هو ذاته للتربية[٦٩] ، تصف بصورة دقيقة واقع الحال هذا . لا يعني هذا أنه حتى بدون تربية ثورية يكون ممكناً تحويل ثوري واع للمجتمع . يتكامل مفهوم ماركس في الواقع بالفكرة التالية :

---

(٦٩) كارل ماركس : « موضوعات عن فيورباخ » . الموضوعة الثالثة : « إن المذهب المادي (. . .) ينسى ان الناس هم بالتحديد الذين يحولون الظروف وأن المربي يحتاج هو ذاته الى تربية». (« الايديولوجيا الألمانية » المنشورات الاجتماعية ، باريس ١٩٦٨ ، ص ٣٢) .

فقط «في النشاط الثوري (. . .) يتطابق تحويل الذات مـع تحويـل الظروف»[٧٠] .

---

(٧٠) ماركس ـ انجلز : « الايديولوجيا الألمانية » المرجع المذكور .

فهرس

النظرية اللينينية في التنظيم

يتضمن هذا الكتاب دراستين لارنست ماندل حول النظرية اللينينية في التنظيم. أولاهما بعنوان «لينين ومشكلة الوعي الطبقي البروليتاري». والثانية بعنوان «حالة نظرية التنظيم اللينينية على ضوء التجربة التاريخية»، حيث تبدو هذه النظرية كوحدة جدلية لثلاثة عناصر هي: نظرية في حالية الثورة في البلدان المتخلفة في عصر الامبريالية (وقد امتدت فيما بعد لتصبح نظرية في حالية الثورة على المستوى العالمي في عصر الازمة المعممة للرأسمالية). نظرية في التطور المتقطع والمتناقض للوعي الطبقي البروليتاري ولأهم أطواره، ونظرية في جوهر الماركسية وفي علاقاتها النوعية سواء بالعلم أو بالنضال الطبقي البروليتاري

دار الالتزام
بيروت ١٩٨٤